الجبل الـخامس

باولو كويلهو

الجبل الخامس

ترجمة: نسيم واكيم يازجي

الجبل الخامس

تأليف: باولو كويلهو

ترجمة: نسيم واكيم يازجي

التدقيق اللغوي وإعادة الصياغة:رسلان علاء الدين

سنة الطباعة: ٢٠١٢

عدد النسخ: ١٠٠٠

الترقيم الدولي:ISBN 978-9933-22-000-6

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار ومؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٠٠٩٦٣ ١١ ٥٦٢٧٠٦٠

هاتف:٠٠٩٦٣١١٥٦٣٧٠٦٠

فاكس: ٠٠٩٦٣ ١١ ٥٦٣٢٨٦٠

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

www.darrislan.com

نبذة عن الكاتب

ولد باولو كويلهو في ريو دي جانيرو، بالبرازيل. في شهر آب من العام ١٩٤٧. بدأ بدراسة الحقوق لكنه تركها في العام ١٩٧٠ ليطوف في العالم. بعودته إلى البرازيل، يصبح مؤلف موسيقى شعبية، بخاصة للمغني الشهير رول سكاس. كما كان باولو كويلهو أيضاً صحفياً متخصصاً بالموسيقى البرازيلية، عمل عند بولفرام و **CB** حتى ١٩٨٠، في هذا العام قرر العودة إلى الترحال. يقص كتابه الأول "حاج كومبستيلا"، المنشور في البرازيل في العام ١٩٨٧، خبرة رحلته الطويلة ٨٣٠ كم على درب سانتياغو الرائع، خط السير القديم الذي طرقه حجاج دري سان - جاك دي كومبستيلا.

وصدر له كتاب "الخيميائي " في العام ١٩٨٨ في البرازيل وأضحى، رويداً رويداً، واحداً من أكثر الكتب مبيعاً في أمريكا الجنوبية. نُشر في ٤٥ بلداً و ٣٤ لغة وبيع منه أكثر من عشرة ملايين نسخة في العالم، حصد العديد من الجوائز الأدبية منها "غرانزان كافور"في العام ١٩٩٦ أو "الجائزة الكبرى".

وصدر كتاب "على ضفة نهر بيدرا جلست وبكيت" في العام ١٩٩٤، وترجم إلى ٢٣ لغة.

ونشر باولو كويلهو أيضاً "موجز محارب النور" و "فيرونيكا تقرر أن تموت" و"إحدى عشر دقيقة" غير ذلك من الأعمال الأدبية الهامة.

مقدمة الكاتب

الأطروحة الأساس لكتابي "الخيميائي " تقوم على جملة وجهها الملك ملسشيدش إلى الراعي سانتياغو: "حينما تود شيئاً يتعاون كل الناس على تحقيق رغبتك".

أنا مؤمن تماماً بهذا التأكيد. لذلك، كان كل هدفي في أعمالي الأدبية أن أشد القارئ باستمرار إلى درب رسالته الشخصية ـ أو أن أجعله يتعلم الدروس الضرورية لإتمام رسالته في الحياة. ولألقي ضوءاً على هذا الكلام، كما يبدو لي، أروي فصلاً أو حلقة مما حييت.

في ١٢ آب من العام ١٩٧٩ سأنام واثقاً: في الثلاثين من عمري سأبلغ أوج مهنتي كمنتج أسطوانات. وكمدير فني لـ **CB** في البرازيل. دعيت إلى الولايات المتحدة لأجتمع بالمشرفين على دار الأسطوانات، وبالتأكيد سيوفرون لي أجود الشروط لأحقق كل ما أرغب في هذا المجال. ولا شك أني سأضع جانباً حلمي الأكبر أن أكون كاتباً. إنما ما أهمية هذا؟ ففي نهاية المطاف، كانت

الحياة الواقعية مختلفة جداً عما تصورت، إذ ليس أمامي أي إمكانية لأمارس الكتابة في البرازيل.

في تلك الليلة، قررت، وعفت حلمي: كان همي أن أتلاءم مع الظروف واستفيد من الفرصة السانحة. إن احتج قلبي، كنت أقدر أن أخدعه وأدبّج نصوصاً لأغنياتٍ كلما رغبت، ومن حين إلى حين، أرسل مقالة إلى إحدى الصحف. على هذا، كنت مقتنعاً أن حياتي أخذت درباً آخر، ليس أقل إثارة: كان ينتظرني مستقبل لامع في عوالم الموسيقى.

عند يقظتي، تلقيت دعوة هاتفية من الرئيس: شكرني، من دون أي تعليق. طرقت كل الأبواب طيلة السنتين التاليتين، ولم أعثر على عمل في هذا المضمار.

ما زلت أتذكر واقعة إنجاز تحرير "الجبل الخامس"، وواقعات أخرى هامة في حياتي. كلما أحس بامتلاك الوضع، يبرز حدث يجعلني أفشل، وأتساءل عن السبب. هل فُرض علي أن لا أصل النجاح، كلما دنوت منه؟ هل اللّه قاسٍ إلى درجة يجعلني أتوقع أشجار البلح في الأفق فقط ليتركني أموت عطشاً في وسط الصحراء؟

صرفت وقتاً طويلاً لأفهم أن الدلالة كانت لشيءٍ آخر، لقد وضعت بعض الأحداث في حياتنا لتوجيهنا إلى الدرب الموثوق لرسالتنا الشخصية. وتنبعث أحداث أخرى تخولنا ممارسة كل ما تعلمناه. وبعد لأي، تنجم أحداث تعلمنا شيئاً ما آخر. في كتاب "الحاج كومبوستيلا"حاولت أن ادلل أن هذه المعارف ليست بالضرورة متصلة بالألم والمعاناة، فالانضباط والانتباه يكفيان. مع أن هذا الإدراك صار نعمة هامة في حياتي، ورغم انضباطي الحاسم وانتباهي الشديد، لم أبلغ فهم بعض الحالات الصعبة التي عبرتها.

الطرفة التي سردتها فيها عبرة: كنت آنئذ صانعاً جيداً، جاهدت لأعطي خير ما عندي. وتكونت لدي أفكار ما أزال أعتبرها جيدة. لكن ما لا مهرب منه وقع، في اللحظة الأدق أي يوم أحسست بالثقة التامة والطمأنينة الركينة. أظن أن هذه التجربة ليست وحيدة؛ ما لا مهرب منه حدث في حياة الجميع. البعض صمد وتطور، والبعض عزف ـ لكن طرف التراجيديا أصابنا كلنا. لماذا حدث هذا؟ لأعثر على جواب لهذا السؤال، تركت إيليا يقودني في الليل والنهار .

باولو كويلهو

(وأضاف: "نعم، أعلن لكم، لا يُقبل أي نبي في وطنه. بكل حرية أعلمكم، كان عدد الأرامل كبيراً في إسرائيل، في أيام إيليا، حينما أغلقت السماء لثلاث سنوات وستة شهور وعمّ البلاد جوع كاسح، مع ذلك لم يرسل إلى أي منها إلا إيليا، وكان في ـ صيدا ـ الأرملة سرابتا")

لوقا(٤، ٢٤-٢٦)

تمهيد

في بداية العام ٨٧٠ ق.م. كان ثمّة أمة عرفت باسم فينيقيا، سماها الإسرائيليون لبنان، احتفلت بمناسبة مرور ثلاثة قرون من السلم. كان عندها أسباب عميقة للازدهار. بما أنهم لم يكونوا أقوياء في المجال السياسي، اضطروا إلى التعويض بقوة المفاوضة التي تخلق الحساد، كوسيلة وحيطة في عالم تدمره الحرب باستمرار. عقد اتفاقٌ في حوالي العام ١٠٠٠ ق.م. مع سليمان، ملك إسرائيل لتعزيز وتعمير الأسطول التجاري وتوسيع التجارة. ومنذئذ لم تقف فينيقيا عن التطور.

كان ملاحوها قد وصلوا مناطق بعيدة، مثل إسبانيا وشواطئ المحيط الأطلسي. وحسب بعض النظريات - غير المؤكدة - تركوا بعض النقوش والكتابات في شمال شرق وجنوب البرازيل. تاجروا بالزجاج، وبخشب الأرز، بالسلاح، بالحديد وبالعاج. كان سكان صيدا، صور وجبيل يعرفون الأعداد، الحسابات الفلكية، صناعة الخمر، واستخدموا منذ قرابة ألفي سنة مجموعة من حروف الكتابة، التي سماها اليونان ألفا بيتا **Alphabet**.

في بداية العام ٨٧٠ ق.م، كان مجلس قد عقد في مدينة أبعد من نينوى، وقد أرسل لفيف من الجنرالات وحدات لاحتلال

أراضي الأمم التي تشاطئ البحر الأبيض المتوسط، وأهمها فينيقيا.

وعلى أبواب العام نفسه ٨٧٠ ق.م. اختبأ رجلان في إسطبل جلعاد بإسرائيل، كانا على شفير الموت خلال الساعات القادمة.

الجزء الأول

....

قال إيليا:

ـ"خدمت سيداً تركني الآن جزاءاً لي بين يدي أعدائي".

ـ الله هو الله، أجاب اللاوي. لم يشرح لموسى أكان طيباً أم شريراً، بل أكد فقط: أنه كان هو كل ما تحت الشمس ـ الرعد الذي يهدم البيت، ويد الإنسان التي تعمره ثانيةً.

كان الحديث السبيل الوحيد لتبديد الخوف، فمن لحظة إلى أخرى، كان الجنود يفتحون باب الإسطبل، يتفقدون الخصوم ويعرضون عليهم الخيار الممكن الوحيد: عبادة بعل، الإله الفينيقي، أو الإعدام. فتشوا البيوت بيتاً بيتاً، قبول الدين الجديد أو إعدام الأنبياء. اهتدى اللاوي، هرب من الموت.

لكن إيليا لم يخيّر: خطيئته هي سبب كل ما حدث، وكانت جزابيل تريد رأسه في كل حال.

"كان هذا ملاك السيد[1] الذي أرسلني لأكلم الملك آشاب وإخطاره أن المطر لن يهطل ما دام بعل معبوداً في إسرائيل"، قال، طالباً الصفح لأنه أصغى إلى كلام الملاك. "لكن اللّه تصرف ببطء، عندما سيبدأ فعل الجفاف، ستكون جزابيل قد قتلت كل من بقي عابداً السيد".

بقي اللاوي ساكتاً. إما أن يقبل بعبادة بعل أو يموت باسم السيد.

"من هو اللّه؟ تابع إيليا. أهو الذي يشهر سيف الجندي ليبيد الناس المخلصين لإيمان أساقفتنا؟ أهو الذي أجلس أجنبية في عرش بلدنا، لكي تنزل كل هذه المصائب بجيلنا؟ أهو اللّه من يقتل المخلصين، الأتقياء، أولئك الذين يتبعون شريعة موسى؟"

اتخذ اللاوي قراراً: فضل الموت. وجعل يضحك، لأن فكرة الموت لم تعد تخيفه. التفت نحو النبي الشاب وجهد في تهدئته: "اسأل اللّه من هو، لأنك تشك بقراراته. من جانبي، أنا قبلت مصيري".

- لا يقدر السيد أن يرغب في أن نذبح من دون رحمة، ألحّ إيليا.

---

١ - كلمة السيد حيثما وردت هي **"يسوع المسيح"**.

ـ اللّه قادر على كل شيء. إن اكتفى بفعل ما ندعوه خيراً، لن نستطيع أن نسميه كلي القدرة، فهو يسود فقط جزءاً من الكون، وثمة آخر أقدر منه يسهر ويحكم أعماله. في هذه الحالة، سأعبد هذا الآخر الأقدر.

ـ إن كان يقدر على كل شيء، لماذا لا يوفر الآلام عن محبيه؟ لم لا ينجينا، و يعطينا النصر والقدرة على أعدائه؟

ـ لا أعرف، رد اللاوي. إن في الأمر حكمة، وآمل أن أعرفها قريباً.

ـ ما عندك جواب لهذا السؤال.

ـ لا.

ظل الاثنان ساكتين. وغمر العرق البارد إيليا.

"أنت خائف، أما أنا فقد رضيت بمصيري" أردف اللاوي. "سأخرج وأضع حداً لهذا الاحتضار. كلما سمعت صوتاً في الخارج أتألم متصوراً ما سيحدث لما تأتي ساعتي. منذ أن حبسنا هنا، متُّ مئات المرات، وليس لي إلا أن أموت مرة واحدة. ما دمت سأذبح، ليكن هذا في أسرع ما يمكن".

إنه محق. إيليا سمع ذات الصراخ وعانى أكثر من قدرته على المقاومة.

"أنا رفيقك. أجاهد من أجل البقاء ساعات أُخر".

نهض وفتح باب الإسطبل، تاركاً نور الشمس يكشف عن وجود الرجلين المختبئين هنا.



أخذه اللاوي من ذراعه وبدأ يمشيان. عدا بعض الصراخ، يمكن أن يقال أن اليوم عاديٌ في هذه المدينة التي لا تشبه مدينة أخرى ـ فنور الشمس معتدل، النسيم يأتي من البحر البعيد، الشوارع مغبرة، البيوت صنعت من الآجر المخلوط بالقش.

"أرواحنا أسيرة الخوف من الموت، ونحن في يوم لطيف" قال اللاوي. "في الأعم، لما كنت في صلة وسلام مع اللّه والعالم، كانت الحرارة كاوية، ملأت الريح عيني بالرمل ولم أعد أرى شيئاً على خطوات مني. ما كانت خطة اللّه تلائم أبداً ما نحن عليه أو نحس، لكني متأكد أنه محق في كل هذا".

ـ أنا أجلّ إيمانك.

حدق اللاوي إلى السماء، كمن كان يتملى. ثم استدار إلى إيليا:

"لا تتكبر، ولا تصدق كل ما تسمع: هذا رهان صنعته مع نفسي. قلت أن كل شيء آت من أعلى العليين".

ـ أنت نبي، رد إيليا ، أنت سمعت أيضاً أصواتاً ، وتعرف أن ثمة عالماً آخر.

ـ ربما كان هذا ثمرة خيالي.

ـ أنت رأيت إمارات (اللّه)، ألحّ إيليا ، شاعراً أن انتقادات رفيقه بدأت تصير مكدرة.

"ربما كان هذا ثمرة خيالي، كرر له. بالفعل، أنا ما تحققت من رهاني: لما قلت لنفسي أن كل هذا آت من الأعلى".

كان الشارع خاوياً خالياً. الناس في بيوتهم، ينتظرون أن ينجز جنود آشاب المهمة التي طلبتها الأميرة الأجنبية: إعدام أنبياء إسرائيل. كان إيليا يمشي مع اللاوي، وكان يشعر بأن، خلف كل نافذة وباب، أحد الناس يتأمله ويتهمه أنه وراء ما سيحدث.

"لم أطلب أن أكون نبياً. ربما كان كل هذا ثمرة خيالي" قال إيليا لنفسه.

إنما بعد ما حدث في مشغل هياكل الصلبان والتوابيت، عرف أن الأمر زائف.



منذ طفولته، كان يسمع أصواتاً ويحدث الملائكة. وكان أهله يلحون على استشارة كاهن إسرائيلي. عرف هذا

الأخير، بعد أسئلة عديدة أنه نبي، رسول. "إنسانٌ روحيٌّ"، يلهب مشاعره صوت الله.

بعد ساعات من الحديث المستمر معه، اطلع الكاهن والدي إيليا على أن كل ما يقوله هذا الفتى له هدف و معنى و يجب اعتبار الأمر جدياً.

على طريق العودة، طلب الأهل ألاّ يقص إيليا أبداً لأي شخص ما كان يراه أو يسمعه، كونه نبي يفرض عليهم روابط مع الحكومة، هكذا كان دوماً، لم يسمع إيليا أبداً ما يمكن أن يشغل أو يهم الكهنة أو الملوك. ما كان يتحدث إلا مع ملاكه الحارس وكان يصغي إلى نصائح تهم حياته الشخصية. ومن حين إلى آخر كان يرى رؤى يعجز عن فهمها من محيطات بعيدة، من جبال تسكنها كائنات غريبة، عربات بأجنحة وعيون. ولما تختفي الرؤى،و تلبية لرغبة أهله وطاعتهم، كان يجهد في نسيانها بأسرع ما يمكن.

كانت الأصوات والرؤى تزداد ندرة. والأهل، الراضون، ما عادوا يطرقون الموضوع. ولما صار في عمر يؤكد وجوده الذهني والجسدي، أقرضوه دراهم ليفتح ورشة هياكل تلائمه.



كثيراً ما كان ينظر باحترام إلى الأنبياء الآخرين في شوارع جلعاد: كانوا يلبسون معاطف وأحزمة جلدية، وكانوا يؤكدون أن السيد اختارهم لقيادة الشعب المختار. إنما بالفعل، لم يكن هذا مصيره. أبداً لن يقدر أن يعرف حالة الاستمرار أو الضياع المغناطيسي الوقتي في أثناء جلسة من الجلد الذاتي، ممارسة عادية "من يذكيهم صوت اللّه"، لأنه كان يخشى الألم. أبداً لن يمشي في شوارع جلعاد، مظهراً بفخر آثار الجروح الناجمة خلال الانخطاف، لأنه كان يتهيب كل هذا.

كان إيليا يعتبر نفسه إنساناً عادياً، يلبس ثياباً كباقي الناس وكالآخرين كانت تسوط روحَهُ ذات المخاوف والإغواءات. بعد تقدم عمله في مصنع الهياكل، انكفأت الأصوات نهائياً لأن الراشدين والعمال يفتقرون للوقت لممارسة هذه الأمور. كان أهله فرحين بابنهم، وكانت الحياة تتم بانسجام وسلام.

كان الحديث الذي أجراه مع الكاهن يوم كان صغيراً قد صار شيئاً فشيئاً ذكرى بعيدة. لم يكن إيليا يصدق أن اللّه بحاجة للحديث مع الناس ليقوموا بأوامره. فما كان يحدث في طفولته ما كان سوى هواجس فتى لا عمل له. في جلعاد، مسقط رأسه، كان يعيش ناس يعتبرهم السكان مجانين.

لعجزهم عن تناول قضايا مترابطة، ما كانوا يميزون بين صوت السيد وهذيان العته. كانوا يجوبون الشوارع، منادين بنهاية العالم وعائشين من حسنات الآخر. على هذا لم يعتبرهم أي كاهن "ممّن ينشطه صوت اللّه".

هذا ما جعل إيليا يفكر أن الكهنة ليسوا واثقين مما يؤكدون. كان ثمة "منفعلين بصوت اللّه"لأن البلد لا يعرف إلى أين المسير، وأن الأخوة يتنازعون والحكومة لم تكن مستقرة. ما كان ثمة أي فرق بين الأنبياء والمجانين.

لمّا سمع إيليا بزواج الملك من جزابيل، أميرة صور، لم يقم للأمر وزناً. ملوك آخرون من إسرائيل تصرفوا هكذا. استخلص من هذا سلماً باقياً في المنطقة، وكانت التجارة مع لبنان تطورت. ما كان إيليا يهتم بأن سكان الجوار يؤمنون بآلهة غير موجودين أو تكرسوا لعبادات غريبة كعبادة الحيوانات والجبال، كانوا نبلاء في المفاوضات، وهذا هو الأساس: فاستمر إيليا يشتري منهم خشب الأرز ويبيعهم منتوجات مصنعه. حتى لو أبدوا شيئاً من الغطرسة، لا أحد من تجار لبنان سعى إلى أخذ أي مكسب غير شرعي من الاضطرابات التي تسود إسرائيل. كانوا يدفعون السعر الصحيح للبضائع ولم يرسلوا أي تعليق على استمرار الحروب

الداخلية، أو على القضايا السياسية التي كانت إسرائيل تجابهها باستمرار.



بعد تسلمها العرش، طلبت جزابيل من آشاب أن يستبدل عبادة السيد بعبادة آلهة لبنان.

كان هذا قد حدث سابقاً. ورغم أن إيليا كان ساخطاً من رضى آشاب، استمر بعبادة إله إسرائيل والخضوع لشريعة موسى. "هذا لا يدوم، قال لنفسه. جزابيل استهوت آشاب، لكنها عجزت عن إقناع الشعب".

لكن جزابيل لم تكن امرأة كالأخريات، كانت قانعة أن بعل أرسلها إلى العالم لتهدي الشعوب والأمم. بحذق وجلد، راحت تكافئ وتجزل العطاء لكل من يعزف عن عبادة السيد ويقبل العبادات الجديدة. فبدأ الحجاج يتوافدون، وانتشرت عبادة آلهة لبنان في كل مكان.

"سيمضي هذا. ولن يطال أكثر من جيل واحد، وبعد هذا يمضي"، بهذا كان إيليا يعلل نفسه.

وفي ذلك الوقت حدث وقع غير منتظر. بعد ظهر أحد الأيام، بينما كان ينجز صناعة طاولة في مصنعه، انتشر الظلام حوله، وراحت آلاف البقع البيضاء تلمع. بدأ رأسه يؤلمه ألماً لم

يعرفه، أراد الجلوس، لكنه تحقق أنه غير قادر على تحريك أي من عضلاته.

لم يكن هذا ثمرة خيال أو هاجس...

"أنا مائت في الحال، قال لنفسه. الآن، أكتشفُ المكان الذي أعده اللّه للموتى، وسط السماء.

تلألأ ضوء أقوى وفجأة، كما لو أنه صدر في كل مكان في آن واحد، كلمة اللّه خاطبته: "قل لآشاب إن في حياة السيد، إله إسرائيل الذي أنا في خدمته، لن يكون في تلك الأعوام لا ندى ولا مطر سوى كلمتي فقط".

في اللحظة التالية، عاد الأمر إلى طبيعته، المصنع، بهيق الظلمة، صخب الأطفال اللاعبين في الشارع.

في تلك الليلة لم تغمض جفون إيليا لأول مرة منذ سنين، راودته أحاسيس طفولته، ولم يكن ملاكه الحارس هو المخاطب، إنما. "شيء ما"أقوى. ارتاب، إن لم يطع هذا الأمر، أن تلعن كل حيويته وكل قدراته.

في صباح الغد، قرر أن ينفذ ما طلب منه. وفي نهاية المطاف، اكتفى بتحرير رسالة لا تخصه؛ ما أن أنجز هذه المهمة، حتى كفت الأصوات عن تكديره.

ما كان صعباً أبداً الحصول على جلسة في كنف الملك آشاب. منذ أجيال قبلنا، لما صعد الملك شاؤول إلى العرش،

كان للأنبياء أهمية في شؤون وحكومة بلدهم. كان لهم أن يتزوجوا، أن ينجبوا، إنما، أن يظلوا بتصرف السيد، لئلا تبتعد الحكومة أبداً عن السبيل الصحيح. يؤكد التراث أننا، "بنعمة الله وعبادته"ربحنا عدة معارك واستمرت إسرائيل في الوجود، لأن الحكام إذا ما ضلوا كان ثمة نبي يعيدهم إلى طاعة السيد.

عند وصوله، اطلع إيليا الملك أن القحط سيشمل المنطقة إذا لم تترك عبادة الآلهة الفينيقية.

لم يقم العاهل وزناً لهذا الكلام، لكن جزابيل، القائمة إلى جانب آشاب، بانتباه ويقظة، بدأت تتقصى الوضع. سرد عليها إيليا رؤياه، وجع رأسه، إحساسه أن الزمن توقف لما كان يصغي للملاك. في أثناء تسجيله ما حدث له، صار بإمكانه أن يتأمل عن قرب جزابيل الأميرة التي أصبحت حديث الناس. كانت أبدع من كل النساء اللواتي رآهن، بشعرها الطويل المرسل على قدّها حسن التكوين، وعينيها الخضراوين، المتألقتين في وجهها الأسمر، المحدقتين أبداً إلى عيني إيليا. لم يستطع أن يحل معنى هذه النظرة، ولم يقدر أن يعرف أي أثر تتركه هذه الاستفهامات.

خرج من هذا اللقاء مقتنعاً أنه أتمّ مهمته ويستطيع من الآن أن يعود إلى عمله في المصنع. في طريق العودة، تمنى جزابيل كما

ابن الثلاث والعشرين حولاً. والتمس اللّه أن يمكنه من لقاء فيما بعد امرأة من لبنان، لأنهنّ كنّ جميلات، ببشرتهن النظرة وعيونهن الخضراء المرتوية ألغازاً.



عمل ما بقي من نهاره ورقد مرتاحاً. وفي اليوم التالي، أيقظه اللاوي منذ الفجر. أقنعت جزابيل الملك أن الأنبياء كانوا تهديداً لنمو إسرائيل وتمددها. وتلقى جنود آشاب الأمر بإعدام كل أولئك الذين يرفضون التخلي عن المهمة المقدسة التي عهد اللّه بها إليهم. ولم يعطوا إيليا إمكانية الاختيار: فقد حكم عليه بالموت.

قضى إيليا واللاوي يومين مختبئين في الإسطبل في جنوب جلعاد، بينما أعدم أربعمائة وخمسون نبياً. مع ذلك، تبنّى أغلب الأنبياء المشردين في الشوارع الدين الجديد.



صوت جاف، تلاه صراخ، قطع سلسلة أفكار إيليا، التفت نحو رفيقه، مستنفراً:

"ماذا جرى؟"

لكن أحداً لم يجبه: جسد اللاوي مرمي بالأرض، سهم غرز في وسط صدره.

أمامه وضع جندي السهم في القوس، تأمل إيليا حواله: الشارع، الأبواب والنوافذ المغلقة، الشمس في السماء تسطع بل تبهر، النسيم الآتي من البحر الذي سمع به كثيراً ولم يره. فكر بالهرب، لكنه يعرف أنه سيلتقط قبل أن يصل إلى زاوية الشارع.

"إن كان الموت قادماً حتماً، يفضل إذاً ألاَّ تكون الضربة في الظهر".

وتّر الجندي من جديد قوسه. دهش جداً، إيليا لم يشعر بالخوف، ولا بمحبة الحياة، أو بأي إحساس آخر. فإن كل هذه المسرحية بالنسبة له انتهت منذ زمن، شأنه شأن الجندي، كلاهما يقوم بدور في دراما لم يكتباها. تذكر طفولته، صباحات جلعاد وبعد الظهر فيها، الأعمال غير التامة التي سيتركها في المصنع. فكر بأمه وبأبيه، اللذين لم يرغبا أبداً في أن يكون ولدهما نبياً.

فكر بعيني جزابيل وبسمة الملك آشاب.

قال في داخله: من البلاهة أن يموت الإنسان في عقده الثالث من دون أن يعرف حب امرأة.

تركت اليد الوتر، شق السهم الهواء، عبر و هو يصفّر قرب أذنه اليمنى، وانغرز وراءه في التربة المغبرة.

مرة أخرى جهز الجندي قوسه وسدد. مع ذلك، عوض أن يطلق، حدق إلى عيني إيليا.

"أنا أبرع رامٍ في جيوش آشاب. منذ سبع سنين لم أخطئ رمية واحدة".

التفت إيليا نحو جسم اللاوي.

"كان هذا السهم لك". حافظ الجندي على توتر قوسه، بيدين مرتعشتين. "إيليا هو النبي الوحيد الذي حكم بالموت؛ وكان أمام الآخرين أن يختاروا بين الموت وبين عبادة بعل إذن، أتمم عملك".

لقد فاجأه هدوؤه. تصور الموت مراراً طيلة الليالي التي قضاها في الإسطبل، والآن يعي أنه تألّم أكثر من الضرورة. خلال ثواني، ينتهي كل شيء.

"لن أوفّق، قال الجندي، ما زالت يداي ترتجفان، ويغيّر القوس كل ثانية اتجاهه. اذهب! اخرج من أمامي! أظن أن اللّه حرق سهامي، وسيلعنني إن تمكنت من قتلك."

بقدر ما اكتشف إيليا إمكانية بقائه حياً، كان الخوف يتدفق مجدداً. كان ممكناً أيضاً التعرف على البحر، لقاء امرأة، إنجاب أطفال وإنجاز أعماله في مصنع الهياكل.

" لـو أنتهـى هـذا بسـرعة، قـال. في هـذه اللحظـة، هـدأ. إن انتظرت أكثر، سأتألم عن كل آلام حياتي".

حدق الجندي حوله ليطمئن أن أحداً لم يرَ المشهد. ثم أخفض قوسه، أعاد السهم إلى المحفظة، واختفى.

أحس إيليا أن ساقيه تخذلانه. رجع الرعب بكل حدته. يجب الفـرار علـى الفـور، والاختفـاء مـن جلعـاد، لكـي لا ألتقـي بجنـدي آخـر وجهاً لوجـه. فـالقوس مسـدد إلى قلبـه. لم يخـتر قـدره، ولـن يـرى آشـاب ولـن يفخـر عنـد جيرانـه برؤيـة الملـك ومحادثتـه. لم يكـن جـديراً بـذبح الأنبيـاء. ولـن يكـون قـادراً على رؤية الورشة، في أثنـاء قيلولـة مـا، توقف الـزمن، ومصنع الهياكل يتحوّل إلى جحر مظلم، تزدحم فيه نقاط ضوء.

كمـا الجنـدي، تطلـع حولـه. الشـارع خـاوٍ، فكـر بإمكانيـة إنقـاذ حيـاة الـلاوي لكـن الرهبـة سـرعان مـا عـادت. وقبـل أن يظهر أحدهم، هرب إيليا.

مشـى سـاعات في دروب لم يطرقهـا أحـد منـذ زمـن، ووصـل بعـد لأيٍ حافة ساقية كريث. كان خجولاً بجبنه، إنما ابتهج لبقائه على قيد الحياة.

شـرب قلـيلاً مـن المـاء، قعـد، وآنئـذٍ فقـط أدرك الوضـع الـذي يعيشه: غداً، يحتاج الغذاء، ولن يجده في الصحراء.

تذكر معمل الهياكل، عمل أعوام عديدة،و الذي اضطر أن يتركه وراءه. كان بعض الجيران أصدقاءه، لكنه لا يقدر أن يعتمد عليهم. وقصة هربه، لا بد أنها انتشرت في المدينة، والجميع يكرهون هذا التصرف، بينما كان الناس المؤمنون فعلاً يُرسلون إلى الشهادة.

كان كل ما عمله قد دمّر فقط لأنه آمن بإتمام إرادة السيد.

غداً، وفي الأيام القادمة، أسابيع وشهور، سيقرع تجار لبنان بابه وسيعرفون إن صاحب الدار هرب، باذراً خلفه موت الأنبياء الأطهار. وربما أضيف إلى هذا أنه حاول تدمير الآلهة التي تحمي الأرض والسماء. على عجل ستتخطى القصة حدود إسرائيل وسيتخلى نهائياً عن الزواج من امرأة جميلة من أولاء اللواتي يعشن في لبنان.



"كان في المرفأ سفن وقوارب"

نعم، ثمة سفن وقوارب كانت العادة قبول أخذ بحارتها من المجرمين، أسرى الحرب، الهاربين، لأنها مهنة أخطر من الحرب. في الحرب، قد يبقى الجندي حياً؛ إنما البحار أرض مجهولة، تسكنها الوحوش، وعند حدوث المأساة، لا يبقى أحد حياً ليروي ما حدث.

بالتأكيد، كان ثمة سفن وسواها، لكنها كانت مراقبة من التجار الفينيقيين. إيليا لم يكن مجرماً، أسيراً أو هارباً. كان الإنسان الذي تجرأ على رفع صوته في وجه الإله بعل. لما يكتشف شأنه، يقتل ويرمى في البحر، لأن البحارة كانوا يؤمنون بعمق أن بعل وآلهته كانوا سادة العواصف.

لن يستطيع التوجه نحو البحر. ولا أن يتابع دربه نحو الشمال، فهنا يقع لبنان. ولا بمقدوره الذهاب إلى الشرق، حيث تخوض القبائل الإسرائيلية حرباً منذ جيلين.



تذكر الهدوء الذي أحس به أمام الجندي. في نهاية المطاف، ما الموت؟

لحظة، ثم لا شيء. حتى ولو تسبب بألم، يمضي بسرعة، وثم السيد يستقبله .

تمدد على الأرض وظل برهة طويلة يتأمل السماء. كما اللاوي، حاول أن يتكلم ليس حول وجود الله ـ ليس لديه شك بهذا الموضوع ـ إنما في حكمة حياته.

رأى الجبال، الأرض التي سيحتلها جفاف طويل ــ هكذا أعلن ملاك السيد ـ إنما ما تزال تصون ندى السنين العديدة من المطر . تطلع إلى جدول كريث، الذي سينضب ماؤه

قريباً. ودّع العالم بوجل واحترام، وترجى السيد أن يستقبله لما تأتي ساعته.

تساءل، ما دافع حياته، ولم يجد جواباً.

تساءل، إلى أين المآب، وأدرك أنه كان مطوّقاً.

في صبيحة اليوم التالي، استدار على عقبيه وتوكل، رغم أن الخوف من الموت عاوده.

حاول أن يبتهج فإن أمامه عدة ساعات من الوجود. لكن عبثاً.

اكتشف أن الإنسان نادراً ما يستطيع أن يقرر.

لما استيقظ إيليا في الصباح، حدق إلى كريث مجدداً، غداً، أو في أثناء عام، لن يبقَ سوى درب من الرمل الدقيق والحصى الأملس. ويستمر السكان بتسميته كريث، وربما أرشدوا المسافرين إلى دربهم عند السؤال: "تقع هذه القرية على ضفة الجدول الذي كان يمر من هنا."

لو مشى المسافرون حتى يصلوا إلى حيث أشار السكان، و لم يروا سوى الحصى والرمل الناعم، فسيقولون:"هنا على هذه الأرض، كان مجرى ماء."لكن الشيء الوحيد الهام هو ما يخص الجدول - صبيب مائه ـ الذي لم يعد موجوداً ليروي عطشهم.

كما الجداول، والنباتات، الناس بحاجة إلى المطر، وإنما بطرح آخر: ثمة الأمل، الإيمان، مبرر الحياة. وإلا، إن تابع

الجسم وجوده، النفس تضعف، تخور، ويقدر الناس أن يقولوا، "هنا، في هذا الهيكل العظمي، عاش إنسان".

ليست اللحظة ملائمة للتفكير بهذا كله. ومرة أخرى تذكر حديثه إلى اللاوي قبيل خروجهم من الإسطبل: ما حكمة موت كل هؤلاء، إن كان موتٌ واحدٌ كافياً؟ كان واجبه أن يقف بإنتظار حرس جزابيل. سيأتون، من دون ريب، لأن المسارات ليست عديدة للهرب من جلعاد ـ الفاسدون يتوجهون دوماً إلى الصحراء ـ حيث يوجدون أمواتاً بعد أيام- أو إلى كريث حيث ينتهون إلى الأسر. قريباً إذاً، سيكون الحرس هنا. وسيتمتع برؤيتهم.



شرب شيئاً من الماء الشفاف، وغسل وجهه، وسعى إلى مكان ظليل حيث انتظر مطارديه. إنسان يعجز عن النضال لبناء مصيره ـ حاول النضال، فضاع.

رغم اعتبار الكهنة له نبياً، قرر إيليا العمل في مصنع هياكل، لكن السيد أعاده إلى دربه.

ليس وحده حاول التخلي عن الحياة التي دوَّنها اللّه لكل مخلوق على الأرض. كان له صديق، وهب صوتاً مميزاً، لم يرض ذووه أن يكون مغنياً- لأن هذه المهنة تعيب الأسرة.

كانت إحدى صديقات طفولته تجيد الرقص بشكل لا سابق له، لكن أسرتها منعتها- أن الملك يستطيع أن يدعوها إليه وهذا سبب وجيه ولا أحد يعرف إلى متى يدوم تاجه. فضلاً عن أن جو القصر فاسق، معاد، يبعد كل إمكانية وجود سانحة لزواج كريم.

"ولد الإنسان ليخون مصيره."لم يضع الله في حنايانا إلا المهام المستحيلة.

"لماذا؟"

ربما لأن التراث يجب أن يصان ويبقى أبداً.

لكن هذا الجواب ليس كافياً. "سكان لبنان أكثر تقدماً منّا لأنهم لم يتبعوا تقاليد وتراث البحارة. فبينما استخدم العالم نموذجاً واحداً من المراكب، قرروا هم أن يعمِّروا وسيلة أخرى. كُثر هم الذين فقدوا حياتهم في البحر، لكن سفنهم بنيت من جديد، وهم الآن يسودون التجارة في العالم. دفعوا كلفة باهظة من أجل التلاؤم، لأن الأمر يستحق الجهد."

ربما كان الإنسان يهرب من مصيره لأن الله كان بعيداً عنه، بعد أن وضع في قلبه حلماً،ذهب ليهتم بأشياء جديدة أخرى. كان العالم قد تحوّل، والحياة صارت أشق، لكن السيد لم يعد ليغير أحلام الناس.

الله كان بعيداً. على هذا، لو استمر يرسل الملائكة ليرشدوا الأنبياء، كان لا بد من التمسك بشؤون الأرض. إذن، ما هو الجواب الوافي؟

"ربما خُدع أهلنا وخافوا من أن نرتكب نفس الأخطاء. أو ربما لم يُخدعوا أبداً ولم يتعلموا مؤازرتنا في حل أي مشكلة تعترضنا."

شعر بأنه يقترب من حقيقة ما.

الماء جار أمامه، بعض الغربان تحوم في الجو، النباتات تجاهد لتنمو في الأرض الرملية القاحلة. لو أصغوا إلى تعاليم أهلهم، ماذا يسمعون؟

"يا مجرى الماء، ابحث عن أفضل مكان لكي تعكس مياهك الرائعة نور الشمس، لأن الصحراء سينتهي بها الأمر إلى تجفيفك"، يقول إله الماء، إن وجد صدفة.

"يا غربان، الغذاء أوفر في الغابة منه في وسط الصخر والرمل"، سيقول إله الطيور.

"أيتها النباتات، اطرحي حبوبك بعيداً من هنا، لأن العالم يوفر الأرض الخصبة والرطيبة، وستنمين أنت بشكل أجمل"، سيقول إله الأزهار.

لكن نهر كريث، والنباتات، والغربان تتجرأ على فعل ما رأته الطيور الأخرى، الجداول أو الأزهار مستحيلاً.

حدق إيليا إلى الغراب، وقال له:
"أنا أتعلّم" قال للطير. "حتى ولو كان هذا العلم غير مفيد، لأني مدان بالموت".
" لقد كشفت ببساطة الأمر"، تخيل جواب الغراب. "الشجاعة ضرورية".
ضحك إيليا، لأنه وضع كلاماً في فم طير. كانت هذه لعبة مسلية - تعلمها مع امرأة تحضِّر خبزاً - وقرر الاستمرار. كان يضع الأسئلة ويعطي الأجوبة، كما لو كان حكيماً فعلاً.
لكن الغراب طار. وكان إيليا ينتظر وصول جنود جزابيل، لأن ميتة واحدة تكفي الإنسان.



انصرم اليوم، ولم يجدّ شيء. هل نسوا أن عدو بعل الرئيسي ما يزال حياً؟ لماذا لم تتبعه جزابيل، لأنها تعلم بداهةً أين هو؟ لأني رأيت عينيها، وهذه امرأة عاقلة، قال لنفسه. إن متُّ، سأكون شهيد السيد. كوني هارباً، لن أعتبر سوى جباناً لا يصدق ما يقول.
نعم، هذه هي إستراتيجية الأميرة.

قبيل حلول الظلمة، حط غراب ـ أهو ذاته؟ـ على غصن رُؤي عليه في ذلك الصباح. كان في منقاره قطعة صغيرة من اللحم تركها تسقط دونما انتباه.

بالنسبة لإيليا، كان هذا أعجوبة. ركض حتى الشجرة، التقط قطعة اللحم والتهمها. كان يجهل مصدرها ولم يسعَ إلى معرفته؛ كان المهم أن يسكت جوعه.

رغم الحركة المفاجئة، لم يبتعد الغراب.

"يعرف هذا الطير أني سأموت جوعاً هنا، خاطب ذاته. اسقط فريسته ليقيم احتفالاً بهيجاً لاحقاً"

من المؤكد كانت جزابيل تغذي الإيمان بالإله بعل بسرد قصة هرب إيليا.

في أثناء بعض الوقت، بقيا ـ الرجل والطير يتأملان بعضهما.

تذكر إيليا لعبة الصباح.

"وددت أن أحدثك، أيها الغراب. في هذا الصباح، فكرت أن النفوس بحاجة للغذاء. فإن لم تمت نفسي بعدُ جوعاً، ذلك أن عندها شيء تقوله".

لم يتحرك الطير.

"وإن كان عندها شيء تقوله، علي أن أصغي إليها. لأني لم أحظَ بأحد أكلمهُ"، تابع إيليا.

استدعى إيليا خياله، وتحوَّل إلى غراب."ماذا ينتظر اللّٰه منك؟" سأل نفسه، كما لو كان غراباً.

ـ ينتظر أن أكون كاهناً، مبشّراً، مرشداً.

ـ هذا ما يقوله الكهنة. إنما ربما كانت رغبة السيد غير هذا.

ـ بلا، هذا هو ما يشاء. لأن ملاكاً ظهر في مصنع الهياكل، وطلب مني أن أكلم آشاب. الأصوات التي كنت سمعتها في الطفولة....

ـ....التي سمعها العالم في الطفولة، قاطعه الغراب.

ـ "لكن كل العالم لم يرَ ملاكاً"، لاحظ إيليا.

هذه المرة، لم يرد الغراب. بعد هنيهة، كسر الطير ـ أو، بالأصح، النفس ذاتها، المتأثرة بحرّ الشمس والعزلة في الصحراء ـ كسرت الصمت.

"أتتذكر المرأة التي كانت تعد الخبز؟"سأل نفسه.

كان إيليا يتذكر. كانت أتت إليه وطلبت صنع بعض الصواني. بينما كان ينجز الطلب سمعها تقول إن أسلوب عمله يدل على وجود اللّٰه، وأضافت.

في طريقة صنعك هذه الصواني، أرى أنك تعاني عين الإحساس. أنت تبتسم وأنت تعمل."

كانت المرأة تصنف الكائنات البشرية في جمهرتين: أولئك الذين كانوا سعداء وأولئك الذين يتبرمون مما فعلوا. تؤكد الجمهرة الثانية أن لعنة اللّه لآدم "لتلعن الأرض بسببك. وستشفى ما حييت"هي الحقيقة الوحيدة. ما كانوا يفرحون في أيام العمل ويتأففون في أيام العيد، كونهم بحاجة للراحة. يعتبرون كلام السيد كاعتذار عن حياتهم عديمة النفع، ناسين أنهم قالوا أيضاً لموسى: "السيد إلهك يباركك على الأرض التي وهبك إياها إرثاً، لتسود عليها"

"نعم، أنا أتذكر هذه المرأة، أجاب إيليا. إنها مصيبة، وأنا أحب عملي في مصنع الهياكل."كل طاولة يعدها وكل كرسي يهندسه تخولانه فهم ومحبة الحياة، حتى إن لم يقم وزناً للأمر إلا الآن. لقد جلت لي أني، إذا حدثت المواد التي أصنعها، أفاجأ بالتحقق أن الطاولات والكراسي تجيبني، لأني أضع فيها خيرة ما في نفسي، وأتلقى بالمقابل الحكمة.

- إن لم تكن نجاراً، لما عرفت كيف تضع نفسك خارجك، تقوم بدور غراب يتكلم، وتعي أنك أفضل وأرصن مما تفكر. ففي المنجرة تكتشف أن العظمة موجودة في كل مكان.

- أنا أحببت دوماً أن أتخيل أني أكلم الطاولات والكراسي التي أصنع.

ألا يكفي هذا؟ فالمرأة محقة. حينما أتصور هذا، تأتيني غالباً أفكار لم تخطر ببالي أبداً. وعندما تبدأ لحظة الفهم أني أقدر أن أخدم اللّه بهذه الطريقة، ظهر الملاك و....إيه حسناً! أنت تعرف تتمة القصة.

- ظهر الملاك لأنك كنت جاهزاً مستعداً، أردف الغراب.

- كنت نجاراً حاذقاً.

ـ هذا يشكل شطراً من تدربك. لما يمشي الإنسان نحو مصيره، يضطر أن يغير توجهه غير مرة. أحياناً، تكون الظروف هي الأقوى، ويلتزم بالتدليل على جبنه ويترك. كل هذا جزء من التمرن والتأهيل."

كان إيليا شديد الانتباه إلى ما تقوله نفسه. حتى إذا، في بعض اللحظات، ظن أن الناس والآخرين أقوى. فالسر هو التالي: عدم التخلي بل المجابهة.

- لم أفكر يوماً أن أكون نبياً، قال إيليا.

- بل فكرت. إنما كنت قانعاً أن هذا كان محالاً. أو كان خطراً. أو غير قابل للتفكير"

نهض إيليا، وصرخ:"لماذا أقول أشياء لم أشأ أن أسمعها؟"

خاف الطير من هذه الحركة، وهرب.



عاد الغراب في صباح الغد. عوض أن يبدأ الحديث معه، فضل إيليا أن يتأمله، لأن الحيوان يقدر دوماً أن يدبر غذاءه ويحمل له الفتات.

صداقة غامضة غريبة تطورت بينهما، وشرع إيليا بالفهم والتعلم على يد الطير. رأى كيف يعثر على غذائه في الصحراء واكتشف أنه يقدر أن يعيش أياماً أُخر إن نجح في اتباع دربه. لما صار طيران الغراب دائرياً، عرف إيليا أن ثمة ضحية قريبة. ركض إلى المجال وحاول القبض عليها. في البدء، كان عدد من الحيوانات الصغيرة تنجح بالهرب منه، إنما شيئاً فشيئاً، بفعل التمرن، كسب شيئاً من المهارة. استخدم أغصاناً كسهام وحفر أفخاخاً خبأها تحت طبقة رقيقة من الحصى والرمل.

لما تقع الطريدة، يقسم إيليا غذاءه مع الغراب ويخبئ قطعة لاستخدامها لاحقاً.

لكن الغربة التي كان يعيشها كانت ضاغطة بشكل رهيب، ففضل أن يعود إلى الحديث مع الطير.

سأل الغراب: "من أنت؟

وردّ إيليا: أنا إنسان اكتشف السلم. أقدر على العيش في الصحراء، أؤمن حاجاتي، وأتأمل دقة جمال الخلق الإلهي. كشفت أن لدي نفساً أفضل مما كنت أفكر".

تابعا الصيد سوية في ضوء القمر. آنئذ، عاش ليلة يسودها الأسى، فقرر أن يسأل مجدداً:

"من أنت؟

ـ لا أعرف."



توارى برق آخر من القمر وولد مجدداً في السماء. شعر إيليا بأن جسده أمتن، وروحه أهدأ وأصفى. في تلك الليلة، التفت نحو الغراب، الذي كان ما زال قابعاً فوق الغصن ذاته، وأجاب على السؤال الذي طرحه في وقت سابق:

"أنا نبي، رأيت ملاكاً في أثناء العمل، ولا أرتاب بما أنا قائم به، حتى لو أكد لي كل الناس العكس. حرضت على مذبحة في بلادي لأني تحديت ما يودّ مليكي. أنا في الصحراء ـ كما كنت سابقاً في مصنع الهياكل ـ لأن نفسي قالت لي إن الإنسان يعبر مراحل عديدة قبل أن ينجز قدره".

أردف الغراب:

ـ نعم، أنت تعرف الآن من أنت.

في تلك الليلة، لما عاد إيليا من الصيد، أراد أن يشرب لكن نهر كريث كان جافاً. كان شديد التعب فقرر أن ينام.

في حلمه، بان الملاك الحارس الذي لم يره منذ مدة مديدة.

"لقد خاطب ملاك السيد نفسك، قال الغراب. وأمر: "أرحل من هنا، اتجه نحو الشرق واختبئ في مسيل نهر كريث، الواقع شرق الأردن. تشرب من السيل؛ وأنا أمرت الغربان أن يموّنوك هناك."

قال إيليا في حلمه:

ـ أصغت روحي.

ـ إذن انهض، ملاك السيد يطلب إلي أن أبتعد، ويود الحديث إليك."

نهض إيليا قفزاً، خائفاً. ماذا هناك؟

رغم الليل، انتشر الضوء في المكان، وبان ملاك السيد.

سأل الملاك:

ـ من أتى بك إلى هنا.

ـ أنت من قادني إلى هنا.

ـ لا. جزابيل وجنودها دفعوا بك إلى الهرب. لا تنس أبداً، لأن مهمتك هي الثأر للسيد إلهك.

ـ أنا نبي ما دمت أنت أمامي وأنا أصغي إلى صوتك، يقول إيليا. غيرت مراراً توجهي، كل الناس يفعلون هذا. لكني مستعد للذهاب إلى السامرة وتحطيم جزابيل.

ـ وجدتَ دربك، إنما لن تستطيع أن تحطّم من دون أن تتعلم إعادة البناء. أنا آمرك: "انهض، واذهب إلى السامرة التي من

أملاك صيدا، ستقطن فيها؛ أمرت هناك سيدة، أرملة، أن تموّنك."

في صباح الغد، بحث إيليا عن الغراب ليودعه. لأول مرة منذ وصوله إلى نهر كريث، لم يظهر الطير.

دام سفر إيليا أياماً وبعد لأي وصل إلى الوادي حيث تقع مدينة سربتا التي يسميها سكانها أكبر. بعد البحث الطويل المنهك، رأى امرأة، ترتدي ثوباً أسود، تجمع الحطب. كانت أحطاب الوادي قد جُزّت، فاضطرت أن تكتفي بالقليل من الحطب اليابس.

سألها إيليا:

ـ من أنت؟

تأملت المرأة الرجل الغريب، من دون أن تفهم كلامه.

أعطني ماء. أردف إيليا. أنا وحدي، جائع وعطشان، وقواي عاجزة عن تهديد أحد.

قالت بعد تفكير: أنت لست من هنا. حسب كلامك، أنت آتٍ لا شك من مملكة إسرائيل. لو عرفتني جيداً، لعلمت أني لا أملك شيئاً.

ـ أنت أرملة، قال لي السيد. وأنا أفقر منك. إن لم تعطني الآن ما يسكت جوعي وعطشي، سأموت."

خافت المرأة. كيف عرف هذا الغريب وضعها؟

وقالت المرأة بعد أن استعادت السيطرة على نفسها:

"إن الرجل يخجل إن هو طلب الغذاء من امرأة".

وألح إيليا:

ـ" افعلي ما طلبت منك، أرجوك"، شاعراً بأن قواه تتهار. "لما أصير في وضع سليم، سأعمل لحسابك."

بسمت المرأة، وأردفت:

ـ منذ هنيهة، قلت لي حقيقة: أنا أرملة، فقدت زوجي على متن أحد سفن بلادي. أنا لم أرَ البحر، إنما أعرف أنه، مثل الصحراء، يقتل من يتصدى له.

وتابعت:

"الآن، أنت تكذب. كما أن الإله بعل يعيش في أعلى الجبل الخامس، كذلك أنا ما عندي شيء يؤكل. علماً أن في الحُق قبضة طحين وفي الجرة قليل من الزيت."

أحس إيليا بأن الأفق يزيغ أمامه ووعى أنه قريباً سيفقد وعيه. كتل أطراف القدرة التي بقيت لديه، والتمسها لآخر مرة:

"أنا لا أعرف أنك تقرئين الأفكار، ولا حتى لو صدقتها أنا نفسي. مع ذلك أنبأني السيد أني بوصولي إلى هنا، سألقاك. فعل أشياء جعلتني أشك بعظمة وصوابية كلامه، ولكني لم أشك به أبداً. وهكذا، طلب مني إله إسرائيل أن أقول للمرأة التي سأصادف في سربتا:

"حُقّ طحين لا ينفذ
جرة زيت لا تفرغ
إلى أن يأتي يوم يعمم
فيه السيد المطر
على سطح الأرض قاطبة."

من دون أن يوضح كيف تحدث أعجوبة كهذه، غاب إيليا عن الوعي.

ظلت المرأة ساكنة تحدق إلى الرجل الذي ارتمى أمام قدميها. كانت تعرف أن إله إسرائيل ليس إلا خرافة. وأن آلهة الفينيقيين أقوى وجعلوا من بلادهم واحدة من الأمم الأكثر احتراماً في العالم.

لكنها كانت مطمئنة؛ كانت تعيش بعامة على الحسنات، واليوم، لأول مرة منذ زمن بعيد جداً، يحتاجها رجل. أحست القوة والنشاط. في آخر المطاف، ثمة رعيل يعيش في وضع أسوأ من وضعها.

قالت المرأة:

ـ طالما كان ثمة أحد يطلب مؤازرتي، فإن قيمتي لا بأس بها على الأرض. سأفعل ما طلب مني، ببساطة لأخفف معاناته. أنا أيضاً ذقت الجوع، وعرفت كيف يحطم القوة الجسدية والمعنوية."

قصدت بيتها ورجعت مع قطعة خبز وإبريق ماء. ركعت، أخذت رأس الرجل الغريب بيديها ورطبت شفتيه. بعد دقائق، انتعشت أحاسيسه.

مدت له الخبز، أكل إيليا بهدوء، متأملاً الوادي، التضاريس، والجبال التي كانت تسمّو وبصمت نحو السماء. كان يحدق إلى أسوار سربيا الحمراء التي تهيمن على المرور بالوادي.

قال الغريب:"آويني، أنا مطارد في بلدي".

ـ أي جريمة اقترفت؟

ــ أنا نبي السيد، أمرت جزابيل قتل كل أولئك الذين يرفضون عبادة الآلهة الفينيقية.

ـ كم عمرك؟

ـ "ثلاثة وعشرون عاماً."

تأملت بشفقة الشاب القاعد أمامها. كان شعره طويلاً مرسلاً ووسخاً. وكان ملتحياً، لحية متفرقة، كمن يرغب في أن يظهر أكبر سناً مما هو بالفعل. كيف يتصدى بائس كهذا للأميرة الأقوى في العالم؟

"إن كنت عدواً لجزابيل، فأنت عدوي أيضاً. هي أميرة صور، وبزواجها من مليككم تلقت مهمة هداية الشعب إلى الإيمان الشرعي. هذا هو ما يؤكده أولئك الذين عرفتهم."

وأشارت إلى أحدى الروابي التي تؤطر الوادي.
تقطن آلهتنا في أوج الجبل الخامس منذ أجيال. استطاعوا أن يقيموا السلم في بلادنا. أما إسرائيل تعيش الحرب والآلام. كيف يمكن الاستمرار في الإيمان بإله واحد؟ لتعطَ جزابيل الوقت الكافي لإتمام مهمتها وسترى السلم يخيم أيضاً في بلداتكم.
أجاب إيليا:
ـ لقد سمعت صوت السيد. أما أنتم، فلم تصعدوا إلى قمة الجبل الخامس لتروا ماذا هناك في الأعلى.
ـ من يتسلق هذه الربى يحرق بنار السماوات. الآلهة لا تحب من يتحداها.
وسكتت. كانت قد تذكرت أنها رأت في الليل الفائت في الحلم نوراً متألقاً، يخرج منه صوت يقول: "استقبلي الغريب الذي يأتي بحثاً عنك." ألحّ إيليا.
ـ آويني، ما عندي أي مكان أسند إليه رأسي.
ـ قلت لك، أنا فقيرة. بيتي بالكاد يكفيني أنا وابني.
السيد إلتمسك أن أبقى عندك، هو لا يهمل أبداً من يحب. وأنا أرجوك بدوري. سأكون خادماً لك. أنا نجار، أعرف صناعة الهياكل وبعض أدوات البيت من الأَرْزْ، وسأعثر على شيء أعمله. هكذا، يفيد السيد من يدي ليتم وعده: "حُقّ من

الطحين لا يفرغ، جرة للزيت لا تنفذ حتى اليوم الذي يعطي خلاله المطر الناس جميعاً".

ـ حتى لو أردتُّ ما عندي ما أنفق عليك.

ـ لا ما هذا اللغو. السيد كفيل بهذا.

بلبلها حلم الليل الفائت، ورغم أنها عرفت أن الغريب كان عدواً لأميرة صيدا، قررت المرأة أن تطيع.

اكتشف الجوار على عجل وجود إيليا. روى الناس أن الأرملة أسكنت غريباً في كوخها، لم تحترم ذكرى زوجها ـ البطل الذي استشهد بينما كان يجاهد في بسط وتوسيع دروب تجارة بلده. لما وصلتها هذه الشائعات، أوضحت الأرملة أن الأمر ليس سوى نبي إسرائيلي جائع وعطشان. وانتشر الخبر أن هذا النبي إسرائيلي، هارب من سطوة جزابيل، اختبأ في البلدة. فذهبت لجنة تستشير الكاهن الأكبر.

قال الكاهن الأكبر: "ليمثل الغريب أمامي".وبعد ظهر ذلك اليوم، اقتيد إيليا إلى الرجل الذي مع الحاكم والقائد العسكري، كان يراقب كل ما يحدث في أكبر.

سأل الكاهن الأكبر:

ـ ماذا أتيت تفعل هنا؟ ألا ترى أنك عدو بلدنا؟

ـ خلال أعوام تفاوضت مع لبنان، وأنا أحترم شعبك وعاداتك. أنا هنا لأني مطارد في إسرائيل.الكاهن:
ــ أنا أعرف السبب. هل المرأة هي التي جعلتك تهرب؟
ـ هذه المرأة أفضل مخلوق رأيت، رغم هذا، قضيت عندها عدة دقائق فقط. لكن قلبها قطعة من صخر أصم، ووراء عينيها الخضراوين يختبئ العدو الذي يتوقع تدمير بلدي. أنا لم أهرب، بل أنتظر ببساطة اللحظة الملائمة للعودة إلى هناك."الكاهن يضحك.
"إذن هيّء نفتك لقضاء باقي حياتك لدينا. ليس بيننا وبينكم حرب. كل ما نبغي هو نشر الإيمان المشروع ـ بأساليب سلمية ـ عبر العالم قاطبة. لا نريد أن نكرر الفظاعات التي ارتكبتموها لما احتللتم أرض كنعان.
ــ ذبح الأنبياء أسلوب سلمي؟
ـ إن قطع رأس الأفعى، يبيد ذريتها. قد يموت بعض الناس، إنما يمكن تجنب الحروب الظالمة إلى الأبد. وحسب ما روى لي التجار، إنه نبي اسمه إيليا هو وراء كل هذا وهو الذي هرب بعدئذ."ثبت الكاهن عينيه بالغريب، قبل أن يتابع:

"وهو رجل يشبهك".

أجاب إيليا:

ـ أنا هو.

ـ عظيم. أهلاً بك في بلدة أكبر: لما نحتاج أن نجني شيئاً ما من جزابيل يكون الثمن رأسك، خير نقد للتداول عندنا. وبانتظار هذا، ابحث عن عمل وتعلم كيف تؤمّن حاجاتك، هنا لا مكان للأنبياء."



ما إن غادر إيليا، حتى استدعى الكاهن الكبير لجنة من المواطنين الذين أتوه في الصباح.

الكاهن:

ـ قضي الأمر. تأمرنا التقاليد أن نوفر ملجأ للغرباء. فضلاً عن هذا، أنه هنا تحت نظرنا ونستطيع السهر على ذهابه وإيابه. خير سبيل للتعرف على عدو وتدميره، ولا بدّ من التظاهر بصداقته. عندما تأتي الفرصة الملائمة، سيسلم إلى جزابيل، وتتقاضى بلدتنا الذهب والمكافآت. وهكذا نتعلم كيف نبدد أفكاره؛ والآن، نحن نعرف فقط كيف ندمر جسده."

مع أن إيليا من عبدة الله الواحد وعدو كامن للأميرة، طلب الكاهن أن يُحترم قانون الإبعاد. كان الجميع يعرفون

التقليد: إن رفضت بلدة استقبال مسافر، يعامل سكانها بالمثل. مع أن عدداً كبيراً من أبناء أكبر تشتت على متون سفن أسطول البلاد التجاري، لم يتجرأ أحد على التصدي لقانون الإيواء.
بالإضافة إلى هذا، لا يكلف شيئاً انتظار يوم تبادل رأس النبي اليهودي بكمية من المال.



في ذلك المساء تعشى إيليا مع الأرملة وابنها. وبما أن النبي الإسرائيلي كان يشكل منذ الآن ثروة طائلة عند التبادل قابلة للتفاوض فيما بعد، أرسل بعض التجار مؤونة تكفي الأسرة لمدة أسبوع.
"قيل إن سيد إسرائيل اتخذ عهداً يخص الأرملة. منذ أن توفي زوجي، لم تكن مائدتي ميسورة كما هي اليوم."
اندمج إيليا رويداً رويداً بحياة سربتا. ومثل كل السكان، راح يسميها أكبر.
تعرف على الحاكم، وقائد الحامية، والكاهن الكبير، وأمهر الصناع الذين يعملون بالزجاج واحُترم في كل المدينة. و عندما كان يسأل عمَّ يحدث هناك في بلده، كان يقول الحقيقة: جزابيل تقتل كل أنبياء إسرائيل.

"أنت تخون بلدك، وأنت عدو فينيقيا، هكذا فند رأيه ودحض. إنما نحن أمة من التجار، ونعرف أن سعر رأس الإنسان يزداد مع خطورته."

وهكذا انقضت عدة شهور.

في مدخل الوادي، دوريات آشورية أقامت معسكرها وبدا أنهم هنا باقون. كانوا وحدة عسكرية صغيرة لا تمثل أي تهديد. مع ذلك، دعا القائد الحاكم لاتخاذ بعض التدابير.

"لم يؤرقونا أبداً، لحظ الحاكم. كانوا ولا شك لجنة تجارية، تبحث عن دليل سفر لترويج منتوجهم. إن شاؤوا استخدام دروبنا، دفعوا ضرائب، ونحن يتحسن وضعنا. لمَ نثيرهم؟"

لتأزيم الوضع، سقط ابن الأرملة مريضاً، من دون أي سبب ظاهري. عزا الجوار العلة إلى وجود الغريب، والتمست المرأة من إيليا الرحيل. لكنه لم يلب ـ فالسيد لم يدعوه بعد. وذاعت شائعة تقول إن هذا الغريب حمل معه غضب آلهة الجبل الخامس.

كان يمكن مراقبة الجيش وتطمين الناس حول وصول تشكيلات آشورية. إنما بمرض ابن الأرملة صار الحاكم يعاني من تبرم السكان الذي حرضه وجود إيليا.

فأتاه لفيف من المقيمين وقدموا له اقتراحاً:

"لم لا نبني بيتاً للإسرائيلي خارج الأسوار. بهذا، لا نخرق حق الإيواء، بل نصون أنفسنا من الغضب الإلهي. الآلهة غير مرتاحة لوجود هذا الرجل".

ـ اتركوه حيث هو، أجاب الحاكم. أنا أفضل عدم إثارة إشكالات مع إسرائيل.

ـ كيف تساءل السكان؛ جزابيل تطارد كل عبدة الله الواحد، وتريد موتهم.

ـ أميرتنا امرأة شجاعة وهي مخلصة لآلهة الجبل الخامس. إنما، رغم قدرتها الفائقة الحالية، ليست إسرائيلية. ربما فقدت حظوتها غداً، ونلتزم بمواجهة غضب الجوار. إن أثبتنا أننا نعامل أحد أنبيائهم حسناً، يرتاحون لنا."

رجع الأهل مكدرين، لأن الكاهن الكبير قال أن إيليا سيبادل بالذهب والمكافآت. منذ الآن، حتى إن أخطأ الحاكم، لن يستطيع السكان الاعتراض: فحسب التقاليد احترام الأسرة الحاكمة واجب.

هناك، في مدخل الوادي، بدأت خيام الآشوريين تتضاعف. قلق القائد، لكنه لم يدعم من الكاهن ولا من الحاكم.

فألزم محاربيه بتدريب مستمر، عارفاً أن أحداً منهم ـ كما جدودهم ـ ما عنده خبرة قتال. الحروب تعزى لماضي أكبر. وكل الإستراتيجيات التي تعلموها لم تعد ملائمة من حيث مدى التقنية والأسلحة الجديدة التي تستخدمها البلدان الأجنبية.

"أكبر تفاوض دوماً بروح السلام، أكد الحاكم. ولن نسبب هذه المرة اجتياح بلدنا. اتركوا البلدان الأجنبية تتعارك فيما بينها: نحن، عندنا سلاح أمضى، النقود. لما ينتهون من تذابحهم وتحطيم بعضهم البعض، ندخل مدنهم ــ ونبيع منتوجاتنا."

نجح الحاكم بتهدئة الناس فيما يخص الآشوريين. لكن شائعة انتشرت تقول إن الإسرائيلي جذب لعنة الآلهة إلى أكبر. وإن إيليا يمثل عقدة تتفاقم كل يوم.



بعـد ظهـر أحـد الأيـام تأزمـت حالـة الفتـى. لم يعـد يقـدر أن يتماسك واقفاً، أو يتعرف الناس الذين يأتون إلى زيارته. قبل أن تنزل الشمس نحو الأفق، ركع إيليا والمرأة قرب سرير الطفل.

"يا سيد، أيها المجيد، أنت من حرف سهام الجندي وقادني إلى هنا، ارحمني واشف الفتى. هو بريء من خطاياي وخطايا ذويه. نجِّه، يا سيد."

لم يعد الغلام يتحرك تقريباً؛ ابيضت شفتاه، وفقدت عيناه بريقهما على عجل.

قالت المرأة: "التمس إلهك الواحد. لأن الأم وحدها تقدر لحظة رحيل طفلها عن هذه الدنيا."

ودّ إيليا أن يقف إلى جانبها، أن يقول لها: لست وحدك، وأن اللّه القادر يستجيب لرجائه. كان إيليا نبياً، قبل هذه المهمة على ضفة نهر كريث ومنذئذ وقفت الملائكة إلى جانبه.

وتابعت: "جفت دموعي. إن لم يرحمني، إن كان بحاجة لحياة أحد، آنئذ صلَّ له أن يأخذني ويدع ابني يعيش فرحاً في هذا الوادي وفي شوارع أكبر."

بذل إيليا جهده ليركز على صلاته؛ لكن معاناة هذه المرأة كانت شديدة من حيث بدت تخترق الغرفة وتخترق الجدران والأبواب .

جسّ جسم الطفل. لم تكن حرارته مرتفعة كما كانت في الأيام السابقة، وهذه إمارة سيئة.



كان الكاهن قد ولج البيت باكراً، وكما كان يفعل خلال أسبوعين، كان يضع كمادات من العشب على وجه وصدر الفتى. في الأيام الأخيرة، كانت نساء أكبر يجلبن الدواء الذي ينتقل سر تركيبه من جيل إلى جيل على مر العصور والذي دلت عليه سلطة الحامية خلال مناسبات عديدة. وفي بعد الظهر من كل يوم كنّ يجتمعن في أسفل الجبل الخامس ويقدمن الأضاحي لكي لا تخرج روح الغلام من جسمه.

تأثراً بكل هذه الأحداث، قدم تاجر مصري وهو يمر في البلدة مسحوقاً أحمر، غالي الثمن، وطلب أن يخلط في غذاء الطفل. حسب الخرافة، عهدت الآلهة ذاتها للأطباء المصريين بسر صنع هذا المسحوق.

كان إيليا يصلي من دون توقف طيلة هذا الوقت.

قالت المرأة بصوت يتلاشى شيئاً فشيئاً، لأنها لم تنم عدة أيام: "أنا أعرف سبب تخويلك البقاء هنا." "أعرف أن ثمن رأسك حدد وفي ذات يوم سترحّل إلى إسرائيل، لأنك تبادل بالذهب.

فإن شفيت ابني، أقسم ببعل وبآلهة الجبل الخامس أنك لن تؤسر. أنا أعرف دروباً نسيها هذا الجيل، وسأدربك على الهرب من أكبر من دون أن يراك أحد."

رد إيليا بصمت.

صلّ لإلهك الواحد، التمسته المرأة ثانية. إن أنقذ ابني أقسم أن أنكر بعل وأؤمن به. أطلع سيدك أني قدمت لك ملاذاً لما احتجت، أني فعلت تماماً ما طلب."

صلى إيليا أيضاً، وتوسل بكل قواه.

في هذه اللحظة الحرجة، تحرك الولد، وقال بصوت خائر:

"أريد أن أخرج من هنا."

برقت عينا الأم سروراً، وسالت دموعها. وقالت:

"تعال، يا ابني. هلمّ إلى حيث تشاء، أفعل ما ترغب."

حاول إيليا أن يأخذ الولد بين يديه، لكن الصغير أبعد اليد.

"أريد أن أخرج وحدي"

نهض ببطء واتجه إلى الغرفة. بعد خطوات، سقط إلى الأرض، كمن صعق.

دنا إيليا والأرملة منه. كان الولد ميتاً.

خلال هنيهة لم ينطق هذا ولا تلك. فجأة، راحت الأم تنتحب.

"لتكن الآلهة ملعونة ليلعن أولئك الذي خطفوا روح ولدي. ليلعن الإنسان الذي حمل النكبة إلى بيتي! آه، وحيدي! احترمت

مشـيئة السـموات، كريمـة كنـت مـع الغريـب، وبعـد كـل حساب، رحل الصبي!"

سمع الجيران نحيب الأرملة ورأوا ابنها ممداً على الأرض. تابعت العويل، وانهالت بقبضتيها على النبي الإسرائيلي الواقف أمامها ـ بدا كمن فقد كل طاقة على الرد ولم يفعل شيئاً دفاعاً عن نفسه. بينما كانت النسوة يهدئنها ويواسينها، قبض الرجال على إيليا واقتادوه إلى الحاكم.

"كافأ هذا الرجل المروءة بالكراهية. رمى بيت الأرملة بالسحر المؤذي الذي مات الولد فيه. لقد قدمنا مأوى إلى مخلوق لعنته الآلهة".

كان الإسرائيلي يبكي، "سيدي، إلهي، حتى بهذه الأرملة التي قدمت لي العون أنزلت ضربتك؟ إن كنت أمتّ وليدها، ذلك لأني لم أتم المهمة التي عهدت لي بها، فأنا أستحق الموت."



في المساء، انعقد مجلس مدينة أكبر، برئاسة الكاهن والحاكم. أحيل إيليا إلى المحاكمة.

قرر الحاكم: "اعتزمت مكافأة الحب بالحقد. لذا، أدينك بالموت.

وأردف الكاهن:

"حتى إن كان رأسك يساوي ذهباً، نحن غير قادرين على إيقاظ غضب آلهة الجبل الخامس. في هذه الحال لا أحد في العالم قادر على بسط السلم على هذه البلدة."

خفض إيليا رأسه. كان يستحق كل المعاناة التي يقدر على حملها، لأن السيد تخلى عنه. وأمر الكاهن:

"اذهب واصعد الجبل الخامس. اطلب عفو الآلهة الغاضبة المهانة. سينزلون نار السموات لقتلك. إن امتنعوا، ذلك لأنهم يرغبون في أن تتم العدالة على يدنا؛ سننتظر عودتك، وغداً تعدم، حسب الطقوس".

كان إيليا يعرف جيداً الإعدامات الدينية: ينزع قلب الضحية ويقص رأسها. حسب العادة، إنسان بلا قلب لا يدخل الجنة.

"لم اخترتني لهذا المصير، يا سيد؟" صرخ بصوت جهوري، عارفاً أن من يحيط به لا يعرف المهمة التي خصه بها السيد.

"ألا تعرف أني لست جدير بإتمام ما تطلب؟"

لم يسمع جواباً.

تبع رجال ونساء أكبر موكب فصيل الحرس الذي اقتاد الإسرائيلي إلى أسفل الجبل الخامس. كانوا يرمونه بالشتائم والحجارة. بجهدٍ مضنٍ تمكن الجنود من احتواء غضب

الحشد. بعد نصف ساعة من المسير، وصلوا إلى الجبل المقدس.

وقف الفصيل أمام المعابد الحجرية التي اعتاد الناس أن يضعوا عليها الكفارات، أن يستهلكوا الأضاحي، أن يذكروا النذور وأن يقيموا الصلوات. كان الجميع يعرف أسطورة الجبابرة الذين كانوا يعيشون هناك ويتذكرون الأشخاص الذين تصدوا للمحرّم، فضربوا بنار من السماء. وكان المسافرون الذين سلكوا في الليل درب الوادي يؤكدون سماع ضحك الآلهة والآلهات. مع أن أحداً لا يملك ما يؤكد كل هذا، كذلك لا أحد يخاطر بتحدي الآلهة.

قال أحد الجنود، وهو يدفع إيليا برأس حربته:

"هلموا. من يقتل طفلاً يستحق أقسى العقوبات."



داس إيليا على الأرض المحرمة وبدأ بتسلق المنحدر. لما مشى ما يكفيه ليبتعد عن سماع صراخ سكان أكبر، جلس على صخرة وبكى: منذ وجوده ذاك، في الورشة بعد الظهر التي رأى أضواءها تشع في العتمة، لم ينجح سوى بحمل الأذى للآخرين. لقد خسر السيدُ الناطقَ بلسانه في إسرائيل وتعززت عبادة الآلهة الفينيقية. في الليلة الأولى التي قضاها قرب جدول

نهر كريث، آمن إيليا أن الله اختاره ليكون شهيداً، فقد تلقى هذا المصير جمهرة من الناس.

بالمقابل، أرسل السيد غراباً - طير الشؤم - غذاه حتى جف نهر كريث. لمَ أرسل غراباً، وليس حمامة، أو ملاكاً؟ ألم يكن كل هذا سوى هذيان إنسان راغب في إخفاء خوفه أو بقي رأسه برهة طويلة معرضاً في عين الشمس؟ ما كان إيليا الآن واثقاً من شيء: ربما وجد الشر أداتهُ وكان، هو، هذه الأداة. لمَ، بدل العودة وتصفية العلاقة مع الأميرة التي كانت تنزل ضرراً مبرحاً بشعبها، أمره الله أن يأتي إلى أكبر؟ لقد شعر بأنه جبان لكنه أطاع. جاهد ليتلاءم مع هذا الشعب الغريب، اللطيف، لكن لغته كانت غريبة تماماً. وبينما كان يظن أنه يتم قدره، توفي ابن الأرملة.

"لماذا أنا؟" سأل.



نهض، عاد إلى المشي ودخل في الضباب الذي يغلف قمة الجبل. خلف هذا الضباب يستطيع أن يهرب من مطارديه، إنما ما الخير في هذا؟ كان مرهقاً من الهرب. كان يعرف أنه لن يجد الراحة والهدوء في هذا العالم.

حتى إذا تمكن من الاختفاء الآن، ستصحبه اللعنة إلى مدينة أخرى، ويذوق طعم مآسي ملاحقات جديدة. كان يحمل معه، حيثما حل، ظل موته. فمن الأفضل أن يُقتلع قلبه من صدره وليجز رأسه.

قعد ثانية، هذه المرة في وسط الضباب تماماً. كان قرر أن ينتظر قليلاً، لكي يعتقد الناس أنه صعد إلى ذروة التل. ثم يعود إلى أكبر ويتركهم يأسرونه.

"نار من السماء"كثر الذين ماتوا، وإيليا يرتاب أن السيد أرسله.

في الليالي غير القمراء، القبة الزرقاء مظلمة، كان يُرى حيناً ويتوارى فجأة. ربما احترق. ربما قتل الآن، من دون معاناة.



حلّ الظلام وتشتت السحاب. رأى الوادي، تحته، أنوار أكبر ونيران معسكر الآشوريين. سمع نباح الكلاب ونشيد الحرب من المحاربين.

"أنا على أهبة الاستعداد. رضيت أن أكون نبياً، وعملت ما أستطيع. لكني فشلت، والآن الله بحاجة لشخص آخر."

في هذه اللحظات، وصله الضوء.

"نيران السماء! "

على هذا ، لم يمسه الضوء بل ظل أمامه. صوت يقول:
"أنا ملاك السيد"
سجد إيليا ، وجهه إلى الأرض.
"رأيتك أكثر من مرة ، وأطعت ملاك السيد الذي بذر الأسى أمامي حيثما حللت"، رد إيليا ، وما يزال راكعاً.
لكن الملاك ردد :
"لما تصل المدينة ، صلّ ثلاث مرات لكي يرجع الطفل إلى الحياة ،السيد يسمعك في المرة الثالثة".
- لماذا أفعل هذا؟
- لعظمة اللّه ومجده.
- مهما حدث، أنا أشك بنفسي. لم أعد جديراً بمهمتي، أردف إيليا.
- لكل إنسان الحق في أن يرتاب بمهمته وينكل عنها من وقت إلى آخر. الشيء الوحيد الذي لا يستطيعه ، هو النسيان. من لا يشك بذاته غير خليق بهذا - لأنه يثق ثقة عمياء بقيمته ويخطئ بعجرفة. ليكن مباركاً من يجتاز لحظات من الحيرة والتردد.
- مرت لحظة ، رأيت أنك لم تعد متأكداً أنك رسول اللّه.
- اذهب، وافعل ما أقول.

*

بعد مدة مديدة، نزل إيليا من الجبل. كان الحرس بانتظاره أمام معابد التضحيات، لكن الحشد كان عاد إلى أكبر.

"أنا مستعد للموت. التمست العذر من آلهة الجبل الخامس، وهم يطلبون، قبل أن تترك روحي بدني، أن آتي إلى عند الأرملة التي استقبلتني وألتمسها أن ترحم روحي."

اقتادهُ الجنود أمام الكاهن. هناك، نقلوا التماسهُ.

"أنا أوافقك، قال الكاهن للأسير. وما دمت قد رجوت سماح الآلهة، يجب أن تطلب عذر الأرملة. ولئلا تهرب، سيخفرك أربعة جنود. إنما لا تظن أنك تنجح في إقناعها بالتماس الرحمة بك والعفو عنك. فعند بزوغ النهار، سنشنقك في الساحة العامة."

رغب الكاهن في الاستفهام منه حول ما رأى في الذروة. إنما، بحضور الجند، ربما تردد أن يسأل. قرر إذن ألاّ يقول شيئاً. مع ذلك، تصور أن طلب إيليا العفو أمام الناس فكرة جيدة. لا أحد يشك بسلطة آلهة الجبل الخامس.

توجه إيليا والجنود إلى الحي البائس حيث عاش عدة أشهر. كان باب ونوافذ بيت الأرملة مشرعة ـ حسب العادة ـ روح ولدها

تقـدر أن تـزور مقـام الآلهـة. كـان الجسـد مسـجى في وسـط الحجرة، لقد سهر عليه كل الجيران.

لما بان الإسرائيلي، ارتعب القوم، نساء ورجالاً.

"أخرجـوه مـن هنـا، صـاحوا بـالحرس. ألم يكفـه الـرزء الـذي سـببه؟هذا الرجـل كلـي السـوء بحيـث لم تشـأ الآلهـة توسـيخ أيديهم بدمه!"

" دعـوا لنـا مهمـة قتلـه، صـرخ آخـر. نشـنقه الآن في الحـال، لـن ننتظر الإعدام الطقسي!"

لتفادي الضرب والصفع، حـرر إيليـا يديـه المقيـدتين، وركـض فوراً نحو الأرملة التي كانت تندب في إحدى الزوايا.

"أنا أستطيع أن أعيد ابنك من بين الأموات. دعيني أمسـهُ. لحظـة فقط."

لم ترفع الأرملة رأسها.

"أرجوكِ، ألحّ. حتى إن كان هذا آخر شـيء تفعلينـه مـن أجلـي في هذه الحياة، اعطني فرصة لأكافئك على مروءتك."

اقترب منـه. بعـض النـاس، رغبـة في إبعـاده. لكـن إيليـا انـتفض وعارك بكل قواه، ملتمساً تركه يلمس الطفل الميت.

رغم عناده، أمكن دفعه نحو العتبة"مـلاك السـيد، أيـن أنـت؟" صرخ مخاطباً السماء.

توقف الجمع. نهضت الأرملة واتجهت نحوه. أخذته من يده، قادته حتى جثة ابنها وسحبت الغطاء عنه، وقالت:
"هوذا دمُ دمي. لينزل على رأس ذويك إن لم تنجح فيما رغبت."
دنا ليلمسه.
صرخت المرأة:"لحظة. التمس ربك أن تتم لعنتي".
جنَّ قلب إيليا. لكنه كان يثق بكلام الملاك.
"ليراق دم هذا الطفل على أهلي، على أخوتي وعلى أبناء وبنات أخوتي إن فشلت."
آنئذ، رغم كل شكوكه، ذنبه ومخاوفه، أخذه من يدي المرأة، وحمله إلى الغرفة العليا ووضعه. ثم ابتهل إلى السموات قائلاً:
"أتريد الضير، يا سيد، حتى لهذه الأرملة التي آوتني، إلى درجة حرمانها وحيدها؟ "
استلقى ثلاث مرات فوق الطفل وتضرع إلى السيد هاتفاً:
"سيدي وربي"، خلال لحظات لم يحدث شيء. شاهد إيليا نفسه مجدداً في جلعاد، أمام الجندي، السهم المروّس مسدد إلى قلبه. كان يعرف على الأغلب أن قدر الإنسان لا يتعلق بظنه أو شكّه. كان يحس الهدوء والثقة، لأنه كان يعلم أن النتيجة أياً كانت، ثمة حكمة في كل ما يقع. في قمة الجبل الخامس، سمى الملاك هذه الحكمة "عظمة الله". كان يرجو

أن يفهم يوماً سبب حاجة الخالق لمخلوقاته ليظهر هذا المجد.
آنئذ فتح الطفل عينيه، وقال:
"أين أمي".
أجاب إيليا مبتسماً.
" هناك في الأسفل، هي تنتظر". أردف إيليا مبتسماً.
ـ حلمت حلماً غريباً. كنت مسافراً في نفق أسود، بسرعة تزيد على سرعة حصان السباق في أكبر. رأيت رجلاً، عرفت أنه كان أبي، مع أني لم أعرفه أبداً. آنئذٍ وصلت إلى مكان رائع، تمنيت أن أظل فيه. لكن الرجل الغريب الذي لا أعرفه، بدا لي طيباً جداً ومقداماً. طلب مني بمودة أن أرجع. تمنيت الذهاب إلى مكان أبعد، لكنك أيقظتني."
كان الطفل حزيناً. ربما كان المكان الذي ولجه جميلاً جداً.
"لا تتركني وحدي، لأنك أعدتني من مكان كان يحميني".
قال إيليا:
ـ "هلم ننزل. تريد أمك أن تراك."
حاول الطفل أن ينهض، لكنه كان أعجز من أن يمشي. أخذه إيليا إلى صدره، وهبطا.



تحت، في القاعة، كان الناس يبدون كما لو استحوذ عليهم خوف رهيب.

سأل الطفل:"لماذا تجمع كل هؤلاء هنا؟

قبل أن يجيب إيليا، أخذت الأرملة الطفل واحتضنته وراحت تبكي.

"أمي، ماذا فعلتم؟ لمَ أنتِ حزينة؟"

" لست حزينة، يا بني، أجابت الوالدة وهي تكفكف دمعها. لم أكن يوماً سعيدة كما أنا الآن."

سجدت الوالدة على ركبتيها وأنشأت تصرخ

"أعلم الآن أنك من عند الله! حقيقة السيد تخرج من كلامك!"

ضمّ إيليا الفتى إلى صدره وطلب منه أن ينهض.

خاطبت المرأة الجند:

"حرروا هذا الرجل. لقد طرد الشر الذي حل ببيتي!"

لم يقدر الناس الملتئمين هنا أن يصدقوا عيونهم. شابة في ربيعها العشرين، كانت رسامة، سجدت قرب الأرملة. شيئاً فشيئاً بدأ الحشد يقلدها ـ حتى العسكر الذين كلفوا باقتياد إيليا أسيراً.

"انهضوا. ومجدوا السيد. لست سوى أحد خدمه، ربما كنت أسوأهم تربية."

لكن الجميع ظلوا على ركبهم، مطأطئي الرأس.

سمع أحدهم يقول: "تحدثتَ مع الآلهة في الجبل الخامس. والآن تستطيع أن تجترح المعجزات".

" ليس ثمة آلهة، أجاب. رأيت ملاك السيد، الذي أمرني أن أفعل هذا".

" صادفت الإله بعل وأخوته"، أكّد آخر.

شق إيليا سبيلاً بين الناس الساجدين وخرج إلى الشارع. كان قلبه يحفق في صدره بعنف، كأنه لم ينجز المهمة التي عهد بها الملاك له.

"ما الخير في إقامة طفل من الموت، إن كان أحد لم يعِ مصدر قوة خارقة كهذه؟"

طلب منه الملاك أن يذكر اسم السيد ثلاث مرات لكنه لم يقل شيئاً يجلو المعجزة للرعيل المكوم هناك. هل يعود هذا إلى ما كان يحدث في أيام الأنبياء القدماء، إن رضيت أنا أن أقدم برهاناً دنيوياً؟"تساءل.

وسمع صوت الملاك الحارس، معه كان يتسامر منذ الطفولة:

"صادفت اليوم ملاك السيد.

ـ نعم، أجاب إيليا. لكن ملائكة السيد لا تحدث الناس. هي لا تفعل سوى نقل أوامر اللّه.

أوصاه الملاك الحارس.

ـ استخدم سلطتك."

لم يفهم إيليا القصد مما سمع. "ليس لدي سلطة سوى الصادرة من السيد.

ـ لم يفعل أحد ما حدث. كل الناس يملكون سلطة السيد لكن أحداً منا لم يستخدمها."

وأضاف الملاك:

ـ من الآن، وحتى تعود إلى البلد الذي تركته، لن تقوم بأي معجزة.

ـ و متى أعود إلى بلدي؟

ـ السيد بحاجتك لكي تعمّر إسرائيل ثانية. ستطأ مجدداً أرضها لما تتعلم إعادة التشييد."

وسكت.

الجزء الثاني

....

وجّه الكاهن الكبير صلاته إلى الشمس التي بزغت والتمس إله العاصفة، وإلهة الحيوانات، أن ترحم المجانين الذين قصوا

عليه في هذا الصباح، أن إيليا رجع بابن الأرملة من مملكة الأموات.

فارتعبت المدينة وأثيرت دفعة واحدة. كان الجميع يعتقدون أن الإسرائيلي تلقى سلطته من آلهة الجبل الخامس، و لذلك فالتخلص منه من الآن فصاعداً أصبح صعباً جداً. "لكن الساعة دانية"، قال الكاهن لنفسه.

لقد أعطته الآلهة فرصة لقتل هذا الرجل. على هذا، كان الغضب الإلهي بدافع آخر، ووجود الآشوريين في مدخل الوادي كان دلالة واضحة.

لماذا انتهت عهود السلم؟ كان يعرف جواب هذا السؤال: من جراء اختراع بيبلوس (جبيل). طور بلده شكلاً من الكتابة قبله الجميع ـــ حتى أولئك الذين لم يكونوا أهلاً لاستخدامها. كان كل من أراد يقدر أن يتعلمها خلال وقت قصير، وكان هذا غاية الحضارة.

كان الكاهن يعرف أن الكلمة هي أرهب سلاح ابتكره الإنسان.

كان الخنجر والرمح يتركان بقايا دم؛ وكان السهم يُرى من بعيد؛ وانتهوا إلى اكتشاف السموم واتقائها. لكن الكلمة تدمر دون أن تترك أثراً. إن استطاعت الأفكار الدينية المبتدعة أن تنتشر، فعلى يد كثير من الناس الذين استخدموا

الكلمة لمحاولة تغيير العالم، وتشويش الآلهة وتعكير صفوها. قبل أن توجد هذه الكتابة، حافظ السلك الكهنوتي فقط على ذكرى الأجداد ـ ونقلت شفهياً، وبفعل القسم حافظت المعلومات على سريتها. أو وجب قضاء سنين من الدراسة لاكتشاف لغز الحروف التي ابتكرها المصريون و كان فقط أولئك الذين أعدوا إعداداً جيداً، من الكتبة ـ النساخ والكهنة، هم القادرين على تبادل التعاليم.

ولتدوين التاريخ كان عند ثقافات أخرى سبل بديلة، لكنها كانت شديدة التعقيد فلا يهتم أحد بتعلمها خارج المناطق التي تستعملها. وابتكار بيبلوس كان ينذر بحقائق هامة: بغض النظر عن البلد و أياً كانت لغته فهو قادر على الإفادة من هذا الابتكار. حتى اليونان، الذين رموا بعامة كل ما ليس أصلاً من مدنهم، تلاءموا مع كتابة بيبلوس ومارسوها بسهولة في علاقاتهم التجارية.و طالما كانوا أخصائيين في فن تملك كل ما كان ذا طبيعة تجديدية عمّدوه باسم يوناني **alphabet**.

كانت الأسرار التي حفظت طيلة قرون من الحضارة تخشى أن تعرض على الملأ. بالمقابل، كان اختراق الحرمات على يد إيليا ـ الذي جلب كائناً من الضفة الأخرى لنهر الموت، كما اعتاد المصريون أن يفعلوا ـ أمراً تافهاً.

قال لنفسه:"لقد عوقبنا لأننا لم نكن جديرين بصيانة المحرمات. الآشوريون على أبوابنا، سيتخطون الوادي ويتلفوا حضارة الجدود وسيدمرون الكتابة."

كان الكاهن يعرف أن وجود العدو ليس طارئاً أو مفاجئاً. كان له ثمن يجب أن يؤدى. كانت الآلهة قد نظمت الأمور لكي لا يخمن أحد أنهم هم الذين اطلعوا بالقضية فعلاً؛ وضعوا في السلطة حاكماً يقلق على الشؤون التجارية أكثر مما يقلقه الجيش، و كمنفذ لشهوة الآشوريين، أرسلوا ندرة المطر، وأرسلوا من يعمل على تقسيم المدينة. وعلى عجل ستنشب المعركة الحاسمة و تسلم أكبر، لكن التهديد الذي مثلته حروف بيبلوس سيشطب نهائياً من سطح الأرض.

نظف الكاهن بعناية الصخرة التي تدل إلى المكان الذي عاشت فيه أجيال، وعثر حاج غريب على البقعة التي حددتها السموات وبنى البلدة. "ما هذه الروعة! قال لنفسه. كانت الحجارة صورة عن الآلهة ,صارمة، مقاومة، تعيش في كل الظروف، وليست بحاجة أبداً لتعليل وجودها. كان التقليد الشفهي يؤكد أن مركز العالم عيّن بحجر، وفي طفولته، فكر حيناً بالسعي لتبديل المكان. غذى هذا المشروع حتى ذلك العام. إنما لما تأكد من وجود الآشوريين في وسط الوادي، فهم أن حلمه لن يرى النور.

"ليس هذا هاماً,أراد القدر أن يقدم جيلي ضحية للتكفير عن إهانة الآلهة. ثمة أشياء لا مهرب منها في تاريخ العالم، و علينا أن نقبلها."

وعد بطاعة الآلهة: لم يعد يسعى للحؤول دون الحرب.

"ربما بلغنا نهاية الزمن. ليس لدينا وسيلة لتلافي الأزمات التي تزداد شيئاً فشيئاً."

أخذ الكاهن عصاه وخرج من المعبد الصغير. كان على موعد مع قائد حامية أكبر.

كان عند السور الجنوبي تقريباً لما اقترب إيليا منه.

قال الإسرائيلي: "السيد أعاد طفلاً من بين الأموات. فالمدينة مؤمنة بسلطتي." أردف الكاهن:

ـ "لا ريب أن الطفل لم يمت، وقد حدث هذا غير مرة؛ القلب يقف عن الخفقان، وبعد لحظات يعود إلى ممارسة دوره.اليوم، كل الناس تتحدث عن هذا. غداً، سيتذكر الناس أن الآلهة قريبون ويقدرون أن يرعوا كلامهم. آنئذ، تسكت الأفواه. علي أن أرحل من هنا، لأن الآشوريين يتأهبون للمعركة".

ـ أصغ إلى ما عندي لأقوله لك: بعد معجزة الليل الفائت، ذهبت لأنام خارج الأسوار، لأني كنت بحاجة لشيء من الهدوء. آنئذ ظهر لي الملاك الذي رأيته في قمة الجبل الخامس ثانية. وقال لي: "ستدمر الحرب أكبر".

ـ "لا يقدر أحد أن يدمر المدن. سيعاد بناؤها سبعين مرة، لأن الآلهة تعرف أين وضعتها، وهم بحاجة لبقائها."

دنا الحاكم، ترافقه مجموعة من حاشية البلاط:

"ماذا قلت؟" سأله.

ـ اسعوا إلى السلم، أجاب إيليا.

ـ إن كنت خائفاً، عد من حيث أتيت، أردف الكاهن بجفاء.

ـ جزابيل ومليكها ينتظران النبي الهارب ليقتلاه. إنما أود أن توضح لي كيف استطعت أن تتسلق الجبل الخامس من دون أن تحرقك نار السماء؟ أراد الكاهن بالمطلق قطع هذا الحديث: الحاكم ينوي أن يفاوض الآشوريين وربما سعى إلى خدمة إيليا ليصل إلى غاياته.

"لا تصغِ له"، قال الكاهن للحاكم. "البارحة، عندما جُلب إلي لمحاكمته، رأيته يبكي خوفاً".

ـ كنت أبكي بسبب الضرر الذي ظننت أنني سببته. لأني لا أخاف إلا السيد ومن نفسي. أنا لم أهرب من إسرائيل ومستعد للرجوع إليها عندما يسمح السيد. سأحطم أميرتها الحسناء وإيمان إسرائيل سيتخطى هذا التهديد الجديد.

ـ"يجب أن يكون قلبك قاسياً جداً لتقاوم سحر جزابيل"، قال الحاكم ساخراً. "إنما في هذه الحالة نرسل امرأة أخرى أجمل، كما فعلنا قبل جزابيل."

قول الكاهن صحيح. فقبل مائتي عام، فتنت أميرة من صيدا أرصن حكام إسرائيل، الملك سليمان. طلبت منه أن يبني هيكلاً إكراماً لذكرى الإلهة أسترني، وأطاع سليمان. بسبب خرق المحرمات هذا ، حرض السيد الجيوش المجاورة ضد بلده ولعن الله سليمان.

علق إيليا :"سيحدث الأمر ذاته مع أشاب، زوج جزابيل". جعله السيد ينجز مهمته في الوقت المناسب. لكن ما الخير في محاولة قهر هؤلاء الرجال؟ كانوا مثل أولئك الذين رآهم في الليلة السابقة، ساجدين على الأرض في بيت الأرملة، يلتمسون آلهة الجبل الخامس. لم تخولهم السنن تفكيراً معاكساً.

"من المؤسف أن يُفرض علينا احترام قانون إكرام الضيف"، لاحظ الحاكم الذي نسي، ظاهرياً، تعليقات إيليا حول السلم. "وإلا" لآزرنا جزابيل في مهمتها تحطيم الأنبياء".

- "ليس من أجل هذا وفرتم حياتي. أنتم تعرفون أني أمثل نقداً ثميناً للتبادل، وأنتم تسعون إلى فرح جزابيل بقتلي بيديها. إنما، منذ البارحة - عزا لي الشعب سلطات عجائبية. خيل للناس أني صادفت الآلهة في ذروة الجبل الخامس؛ أما أنتم، لا تتكدرون إن أهينت الآلهة، لكنكم لا تريدون إغضاب سكان المدينة."

ترك الحاكم والكاهن إيليا يتكلم وتوجّها نحو الأسوار. في هذه اللحظة الثمينة، قرر الكاهن أن يقتل نبي إسرائيل في أول فرصة؛ فذاك الذي لا يمثل حتى الآن سوى نقود للتبادل قد صار تهديداً.



وهو يراهما يبتعدان، قطع إيليا الرجاء. ماذا عنده لمساعدة السيد؟ فراح يصرخ في وسط الساح:

"يا شعب أكبر! البارحة مساء، صعدت إلى الجبل الخامس وتداولت الحديث مع الآلهة الذين يعيشون في الأعلى. في عودتي، أعدت طفلاً من مملكة الموتى!"

تحلق الناس حوله. كانت القصة انتشرت في أرجاء المدينة. تريث الحاكم والكاهن في الدرب قليلاُ ليعرفا ما يحدث: يسرد النبي الإسرائيلي أنه رأى آلهة الجبل الخامس تسجد وتتعبد لله الأكبر الأسمى.

أعلن الكاهن، سآمر بقتله.

ورد الحاكم الذي كان يتابع أقوال الغريب:

ـ سيتمرد الناس ضدنا."يفضل انتظاره ريثما يرتكب خطأً".

وتابع إيليا:

ـ قبل أن أنزل من الجبل، عهدت لي الآلهة بمساعدة الحاكم ضد تهديد الآشوريين. أنا أعرف أن هذا رجل شريف نبيل ويريد السماع لي. إنما ثمة لفيف من الناس يفيدون من نشوب الحرب، فلا يدعوني أقارب الأمر.

وهمس عجوز في أذن الحاكم:

ـ الإسرائيلي رجل إلهي. لا أحد يقدر على تسلق الجبل الخامس من دون أن تصعقه نار السماء، لكن هذا الرجل نجح، والآن يُنهض الأموات.

وقال شيخ آخر:

ـ صيدا، صور وكل المدن الفينيقية لديها تراث سلمي. لقد عشنا أسوأ التهديدات، وتخطيناها."

دنا المرضى والمقعدون، شقوا طريقاً بين الحشد، لمسوا ثوب إيليا وطلبوا منه أن يشفي أوجاعهم.

أمر الكاهن:" قبل أن ترشد الحاكم أشفِ المرضى. آنئذ نصدق أن آلهة الجبل الخامس هم معك."

تذكر إيليا ما قال الملاك في الليل الفائت: ستوهب فقط قوة الناس العاديين.

ألحّ الكاهن: "المرضى يطلبون العون. ونحن ننتظر".

ـ "بداية سنرعى تجنب الحرب. سيكثر المرضى والجرحى إن لم يستتب السلم."

قطع الحاكم هذه الشوشرة:

"سيأتي إيليا معنا. فقد مسته الريح الإلهي.

رغم أنه لم يصدق أن آلهة تعيش في الجبل الخامس، كان بحاجة إلى نصير ليقنع الشعب أن السلم مع الآشوريين كان الحل الوحيد. بينما ذهبا لملاقاة القائد، تحادث الكاهن مع إيليا.

"أنت لا تصدق شيئاً مما تؤكد".

- أنا أؤمن أن السلم خير مخرج. لكني لا أصدق أن قمم هذه الجبال أسكنت آلهة. ولقد زرتها بنفسي.

- وماذا رأيت؟

- ملاك السيد. وقد رأيته قبل الآن في عدة أمكنة حيثما عبرت. وليس ثمة إلا الله.

ضحك الكاهن.

"تريد أن تقول أن الإله الذي أثار العاصفة خلق القمح أيضاً، حتى وإن كانت هذه الأشياء متباينة كليّة؟"

سأل إيليا:

- "أترى الجبل الخامس؟ الزاوية التي تراها، تبدو لك مختلفة، مع أنها جزء من ذات الجبل. وهكذا كل الأشياء التي تحيط بك: هي وجوه عديدة لله الواحد."

وقفوا في قمة السور، حيث يرون معسكر العدو. في الوادي البعيد، بياض الخيم قفز إلى عيونهم.

قبل بعض الوقت، لما لاحظ الحرس وجود الآشوريين في طرف الوادي، أكد الجواسيس أنهم هناك بمهمة استطلاعية؛ أرادوا أسرهم وبيعهم كعبيد. اختار الحاكم استراتيجية أخرى: لا لعمل أي شيء. أي استتباب علاقات طيبة مع الآشوريين، لتسهيل فتح سوق لتجارة الزجاج المصنوع في أكبر. فضلاً عن أن الآشوريين وهم هنا كانوا يعدون للحرب، وكانوا يعرفون أن البلدات الصغيرة تقف إلى جانب المنتصر. كان قادتهم يرغبون ببساطة في اجتياز هذه المدن، قبل أن تتصدى لمقاومتهم، لكي يبلغوا صور وصيدا حيث تخبأ الثروات وعلم الشعب.

خيم الفصيل في مدخل الوادي، وشيئاً فشيئاً، كانت تصل التعزيزات. كان الكاهن يؤكد معرفة السبب: في المدينة بئر. يقع على بعد أيام من المسير. إن خطط الآشوريين لاحتلال صور وصيدا، ذلك لأنهم بحاجة للماء لتموين جيوشهم.

بعد شهر، كان باستطاعتهم طردهم. وبعد شهرين، كان باستطاعتهم هزيمتهم بسهولة ومناقشة أمر تراجع الجنود الآشوريين بشرف.

كانوا مستعدين للمعركة، إنما لم يهاجموا. بعد خمسة شهور، كانوا قادرين أيضاً على ربح المعركة. "قريباً الآشوريون سيهاجمون لأنهم بدأوا يعطشون" قال الحاكم لنفسه. طلب من القائد وضع إستراتيجيات دفاع وتدريب الجند باستمرار للتصدي لهجوم مفاجئ.

لكنه لم يركز إلا على التأهب للسلم.



انقضت ستة أشهر والجيش الآشوري لم يقم بأي حركة. التوتر في أكبر، الذي تنامى خلال الأسابيع الأولى من التهديد، اختفى نهائياً؛ عاد الناس إلى الحياة، رجع الفلاحون إلى الحقول، والخمارون راحوا يعصرون الخمر، والصناع يهيئون الزجاج والصابون، ويتابع التجار شراء وبيع بضائعهم. الكل يعتقد أن أكبر، ما دامت لم تهاجم العدو، ستحل الأزمة سريعاً بالمفاوضات. الجميع يعرفون أن الحاكم أرشدته الآلهة وأدرك اتخاذ خير قرار.

لما وصل إيليا إلى المدينة، عمل الحاكم على نشر جلبة حول اللعنة التي جلبها الغريب معه؛ بهذه الطريقة، إن صار التهديد بالحرب غير محتمل، استطاع اتهامه أنه السبب الرئيسي في حلول النكبة. اقتنع كل سكان أكبر أن الأمور ستعود إلى

وضعها الطبيعي بموت الإسرائيلي. أوضح الحاكم تأخرهم عن طلب رحيل الآشوريين؛ أمر بقتل إيليا ، وشرح لشعبه أن السلم يشكل خير حل. حسب رأيه ، سيُكره التجار ـ الذين يفضلون السلم ـ الآخرين على قبول هذه الفكرة.

خلال هذه الحقبة ، ناضل ضد ضغط الكاهن والقائد ، المطالبين بهجوم سريع. لكن آلهة الجبل الخامس لم يفارقوه. بعد البعث العجائبي في تلك الليلة ، كانت حياة إيليا أهم من إعدامه.



سأل القائد :

ـ ماذا يفعل هذا الغريب معك؟

أجاب الحاكم :

ـ" أخذ وحياً من الآلهة. وسيساعدوننا على إيجاد المخرج الأفضل."

على الفور غير موضوع الحديث

"يقال إن عدد الخيم ازداد اليوم".

وقال القائد :

ـ وسيزداد غداً. لو هاجمناهم وهم فصيل صغير فقط ، لما عادوا على الأرجح.

ـ أنت مخدوع. ربما قدر أحدهم أن يهرب، ودعا الجيوش للانتقام.

ـ إن تأخر القطاف تلفت الثمار، ألح القائد. لكن إن نمت المشاكل، لن تتوقف عن التفاقم".

علق الحاكم أن السلم يخيم في فينيقيا منذ قرابة ثلاثة أجيال وهذه مفخرة لشعبهم. ماذا تقول الأجيال القادمة إن كف هذا العهد عن الازدهار؟

نصح إيليا:

ـ أرسل رسولاً يفاوضهم. خير محاور هو الذي يتوصل لجعل العدو صديقاً.

ـ نحن لا نعرف بالضبط ماذا يبغون. بل لا نعرف إن هم أرادوا احتلال مدينتنا. كيف لنا أن نفاوض؟

ـ ثمة إشارات تهديد. الجيش لا يضيع وقته بإجراء التمرينات العسكرية بعيداً عن بلاده.

في كل يوم كان يصل عساكر جدد ـ وكان الحاكم يتخيل كمية المياه الضرورية لكل هؤلاء الرجال. بعد بعض الوقت، ستكون البلدة مجردة من السلاح أمام الأعداء.

سأل الكاهن القائد:

"هل نستطيع الآن أن نهاجم؟

ـ نعم، نقدر سنخسر كثيراً من رجالنا لكنّا سننقذ البلدة. على هذا، لابد من اتخاذ قرار سريع. قال إيليا:

ـ بل لسنا مضطرين، أيها الحاكم. لقد أكد لي الآلهة أن الوقت متوفر لنا لاتخاذ حل سلمي".

مع أنه أصغى إلى الحديث بين الكاهن والإسرائيلي، تظاهر الحاكم بالموافقة.

بالنسبة له، سيان إن حكم صيدا وصور الفينيقيون، الكنعانيون أو الآشوريون. الأساس هو أن تستمر المدينة بتصدير إنتاجها.

ألحّ الكاهن: "لنهاجم".

رد الحاكم: " بعد يوم واحد. ربما حُلَّ الإشكال."

كان يرى أن عليه أن يقرر خير طريقة لمواجهة تهديد الآشوريين. نزل عن السور، اتجه نحو القصر وطلب من الإسرائيلي أن يرافقه. في الطريق، رأى الشعب حوله: الرعاة يقودون القطعان إلى المراعي، الحرّاث والمزارعون يذهبون إلى الحقول، محاولين اقتلاع من الأرض التي نضج زرعها شيئاً من الغذاء لهم ولأسرهم. كان الجند يجرون بعض التمارين بحرابهم وسهامهم ووصل حديثاً تجار ليعرضوا منتوجاتهم في الميدان. رغم صعوبة تصديق ظهور هذا الأمر، لم يغلق

الآشوريون الطريق الذي يجتاز الوادي بطوله؛ كان التجار يستمرون بالتجوال مع بضائعهم، دافعين للمدينة ضريبة النقل.

استفسر إيليا:

ـ "الآن وقد نجحوا بتكتيل قوة قادرة، لمَ لا يغلقون الطريق؟"

رد الحاكم:

ـ الإمبراطورية الآشورية بحاجة للمنتوج القادم إلى مرافئ صيدا وصور. فإن هدد التجار، ينضب فيض المؤن. والمحصلة ستكون أفدح من الهزيمة العسكرية. لا مهرب إذن من إيجاد وسيلة لتجنب الحرب.

وافق إيليا: " نعم. إن رغبوا في الماء، بعناهم إياه."

بقي الحاكم صامتاً، إنما أدرك أنه قادر أن يجعل من الإسرائيلي سلاحاً ضد أولئك الذين يرغبون في الحرب. لقد تسلق الجبل الخامس، تحدى الآلهة، وفي حال تشبث الكاهن بفكرة إعلان الحرب على الآشوريين، إيليا فقط يستطيع أن يجعله في المقدمة، عرض عليه الخروج للقيام بجولة، لتبادل أطراف الحديث. ظل الكاهن ساكناً في مكانه يراقب العدو من أعلى السور. سأله القائد:

ـ ماذا تستطيع الآلهة أن تفعل لإيقاف الغزاة.

ـ لقد أنجزت تقديم الأضاحي أمام الجبل الخامس. صليت والتمست من أجل إرسال قائد أشجع.

ـ كـان علينـا أن نفعـل مـا فعلـت جزابيـل، نقتـل الأنبيـاء. هـذا الإسـرائيلي الـذي أديـن البارحـة بـالموت، يسـتخدمه الحـاكم اليـــــوم ليقنـــــع الشـــــعب باختيـــــار الســــلم".

حدق القائـد باتجـاه الجبـل ثـم قـال "نقـدر أن نـأمر بقتـل إيليـا. والطلـــب إلى محـــاربيّ إبعـــاد الحـــاكم عـــن مهامـــه".

رد الكـاهن:" سـأصـدر أمـراً بتنفيـذ المـوت بإيليـا. إنمـا مـع الحاكم لا نستطيع شيئاً :جدوده في السلطة منذ أجيـال. كـان جده رئيسنا، أعطى سلطة الآلهة لأبيه، الذي نقلها لـه بـدوره".

ـ لماذا تمنعنـا التقاليـد مـن وضـع شخصـية أقـدر في الحكـم ؟

ـ وجـدت التقاليـد مـن أجـل اسـتتباب الـنظم. إن تـدخلنا انتهـى العالم."

تأمل الحاكم حوله، السماء والأرض، الجبال والـوادي، كـل عنصر يتمم ما كتب في شـأنه. أحيانـاً كانـت الأرض ترتعـد، وأحيانـاً أخـرى ـ كمـا الأمـر الآن، ينحـدر المطـر لمـدة طويلـة. لكـن النجـوم ظلـت في مكانهـا والشـمس لم تقـع علـى رؤوس النـاس. كـل هـذا لأن النـاس، منـذ الطوفـان، تعلمـوا اسـتحالة تغيير نظام الكون.

فيما مضى من الزمن، لم يكن ثمة إلا الجبل الخامس. الإنسان والآلهة يعيشون سوية، يطوفون في دار الخلد، يتسامرون ويهرجون. لكن الكائنات البشرية أخطأت فطردتها الآلهة من دار البقاء؛ ومادامو لم يجدوا مكاناً يُرسلونها إليه، بعد شدة وعناء اخترعوا الأرض حول الجبل، ليسارع الناس إليها، و ليبقوا تحت الرقابة ولجعلهم يتذكرون أبداً أنهم في مكان أدنى من المكان الذي يشغله سكان الجبل الخامس.

لكنهم أبقوا الباب موارباً من أجل العودة. إن اتبعت البشرية الطريق المستقيم، تنتهي بالرجوع إلى الجبل الخامس. ولئلاّ تُنسى هذه الفكرة، عهدت الآلهة للكهنة والحكام بإبقائها حية في تصور العالم.

كل الشعوب تشترك في نفس الاعتقاد: إذا تعمدت الأسر بالمسيح ابتعدت عن السلطة، ولكانت النتيجة قاسية. لا أحد يذكر سبب انتقاء هذه الأسر، لكن الكل يعرف أن لها وشيجة قربى مع الأسر المقدسة. أكبر موجودة منذ مئات السنين، ولقد أشرف على إدارتها بالمطلق جدود الحاكم الحالي. غزيت مراراً وسقطت بين يدي الطغاة والبرابرة، إنما مع الزمن رحل الطغاة أو طردوا. آنئذٍ، توطد النظام واستعاد الناس حياتهم الماضية.

تمسك الكهنة بهذا النظام: عاش الناس مصيرهم وحكمتهم الشرائع. انقضى زمن البحث عن الآلهة. توجب منذئذ احترامهم وفعل كل ما يريدون. كانوا متقلبي الأطوار وبسهولة يسخطون.

من دون طقوس الجني، الأرض لا تثمر. إن نُسيت أو أُهملت بعض التضحيات، أصيب البلد بأوبئة مبيدة. إن أثير إله الوقت من جديد، لاستطاع أن يضع نهاية لنمو القمح وازدياد الناس.

قال الكاهن للحاكم:

ـ "تأمل الجبل الخامس. من قمته يحكم الآلهة الوادي ويحموننا. لقد أقاموا خطة أبدية لأكبر. الغريب سيقتل، أو يعود إلى بلده، الحاكم سيختفي يوماً، وابنه سيكون أكثر حكمة ورصانة منه. ما نعيشه الآن زائل". أعلن القائد:

"نحن بحاجة لرئيس جديد. إن بقينا تحت حكم هذا الحاكم، سنباد."

كان الكاهن يعرف أن ما سيكون هو ما أرادته الآلهة، لوضع نهاية لتهديد كتابة بيبلوس. لكنه لم يقل شيئاً. اغتبط لأنه حقق مرة أخرى أن ينجز المحكومون ـ شاؤوا أم أبوا ـ مستقبل الكون. تجوّل إيليا في البلدة، شرح خططه في السلم للحاكم ,الذي عينه مساعداً له،لما وصلا إلى وسط الميدان، اقترب منهما مرضى جدد ــ لكنه أعلن أن آلهة الجبل

الخامس منعته من شفاء أحد.بعد الظهر، رجع إلى كنف الأرملة. كان الطفل يلعب في وسط الشارع وشكره لأنه كان أداة أعجوبة السيد.كانت المرأة تنتظره على الغداء. تفاجئ لما رأى الأرملة قد وضعت على المائدة زجاجة خمر.قالت: جلب الرجال هدايا شكراً لك. وأنا أطلب صفحك لعدم عدلي.دهش إيليا: " أي ظلم أو افتراء. ألا ترين أنكم شطر من خطط اللّه؟"ابتسمت الأرملة، وبرقت عيناها، وتوفر له أن يؤكد درجة جمالها. كانت أعمر منه في الأقل بعشر سنين، لكنه كنَّ لها أنساً عميقاً. لم يكن هذا من عادته وفزع: تذكر عيني جزابيل والصلاة التي تلاها وهو يخرج من قصر آشاب ــ ودّ أن يتزوج من امرأة لبنانية ــ تابعت الأرملة"حتى إن كنت لم أقدم خيراً في حياتي، على الأقل أنجبت ولداً. وستُذكر قصته لأنه عاد من مملكة الأموات".

ـ "بل حياتك مجدية. أنا أتيت إلى أكبر بأمر من السيد وأنت استضفتيني. فإن ذكرت يوماً قصة ابنك، ثقي أن قصتك لن تنسى."

ملأت المرأة الكوبين. احتساهما الاثنان بعد غياب الشمس والنجوم في كبد السماء.

"أتيتَ من بلد بعيد متبعاً إشارات الله التي لا تعرفها، إنما هو من الآن سيدي وإلهي. ووفد ابني من مصر بعيد وستقص قصته الجميلة على الأحفاد. سيتلقى الكهنة كلماته وينقلونها إلى الأجيال الصاعدة.

بفضل ذاكرة الكهنة تعرف المدن ماضيها، انتصاراتها، آلهتها القديمة، المحاربين الذين دافعوا عن الوطن بدمهم. رغم وجود أساليب جديدة الآن لتقييد الماضي، لا يثق أبناء أكبر إلا بذاكرة الكهنة. كل منا يقدر أن يسجل ما يريد، لكن أحداً لا يتوصل إلى تذكر الأمور القديمة".

وتابعت المرأة التي ملأت الكأس الذي أفرغه إيليا بسرعة:

ـ"ماذا عندي لأقص؟"ما عندي قوة جزابيل ولا جمالها. حياتي تشبه حياة الآخرين: الزواج الذي عقده الأهل يوم كنت طفلة، الأعباء البيتية يوم رشدت، العبادة، الأيام المقدسة، والزوج منكب أبداً على شيء آخر. في حياته، لم يكن عندنا حديث حول موضوع هام. كان مشغولاً دوماً بشؤونه، أنا، أنهض بأمور البيت، وهكذا عشنا السنين الحلوة من حياتنا".

"بعد موته لم يبق لي سوى البؤس وتربية ابني. لما يكبر ويشبّ، سيذهب للعمل في البحر، وأُهمل أنا، لا حقد، لا كراهية، فقط وعي عدم جدواي."

جمم إيليا كأساً أخرى. بدأ قلبه يعطي إمارات إنذار. أحب رفقة هذه المرأة.

يقدر الحب أن يكون تجربة أكثر اضطراباً من المثول أمام أحد جنود أشاب، سهم حاد باتجاه قلبك؛ إن أصابه السهم ـ يموت ـ ويتكفل الله بالباقي. إنما إن تولّع بالحب، يلتزم هو نفسه بالقيام بالنتائج.

قال: "في حياتي تمنيت الحب كثيراً". وعلى ذلك، الآن هو أمام الحب ـ لا ريب، يكتفي بألاّ يهرب ـ، ما عنده سوى فكرة واحدة، نسيان الأمر بأسرع ما يمكن.

رجع فكره إلى يوم وصوله إلى أكبر بعد أن ترك منطقة نهر كريث. كان شديد التعب والجوع بحيث لا يتذكر شيئاً، سوى لحظة عودته من غيبوبته ولحظة رؤيته المرأة تصب على شفتيه بعض الماء. كان وجهها قريباً من وجهه، أقرب مما كان مع أي امرأة أخرى. لاحظ أن عينيها بخضرة عيني جزابيل، إنما بألق آخر، كما لو كانتا تعكسان الأَرْزَ، البحر الذي حلم به كثيراً دون أن يعرفه، لا بل ـ كيف يمكن هذا؟ ـ تكاد روحه.

قـال في نفسـه: "وددت أن أعـبر لهـا عـن مشـاعري. لكـني لم أعرف كيف أبدأ. الحديث عن اللّه أسهل."



احتسـى إيليـا كـأسـاً أُخـرى. خمنـت أنهـا قالـت شـيئاً كـدّرهُ. وقررت تغيير الحديث.

سألت: ـ "هل تسلقت الجبل الخامس؟

أجاب " نعم".

تمنـت لـو تسـأله عـمَ رأى فـوق، وكيـف نجـح باتقـاء نـار السماء.لكنه لم يكن مرتاحاً:

همست: "إنه نبي. ربما قرأ أفكاري".

منذ دخول الإسرائيلي في حياتها، تبدل كل شيء. حتى الفقر صار حمله أسهل. لأن هذا الأجنبي أيقظ لديها شعوراً لم تعرفهُ أو تذقهُ: الحب. فمذ أن سقط ابنها مريضاً، صارعت ضد كل الجيران ليبقى عندها.

عرفت أنه يرى أن السيد أهم من كل ما يأتي من السماء.

وأدركـت أن شـعورها حلـم محـال، لأن هـذا الرجـل قـادر أن يرحل متى شاء، يسفح دم جزابيل ولا يعود ليبلغها ماذا حدث. على هذا، تابعت حبها له، أنها لأول مـرة في حياتهـا، وعـت مـا هـي الحريـة. تقـدر أن تحبـه، حتـى مـن طـرف واحـد. لم تكـن

بحاجة لأذن منه، إنها تفتقده، تفكر به طيلة اليوم، تنتظره على الغداء، وتقلق من كيد الناس لهذا الأجنبي. هذه هي الحرية: الإحساس بما يرغب به القلب، بغض النظر عن رأي الآخرين. كانت معارضة لأصدقائها وجيرانها في موضوع حضور الأجنبي إلى بيتها. ولم تكن بحاجة لأن تناضل ضد ذاتها.

وتناول إيليا قليلاً من الخمر أيضاً. استأذن وذهب إلى غرفته. خرجت، اغتبطت لرؤية ابنها يلعب أمام البيت وقررت أن تقوم بنزهة قصيرة.

لقد تحررت، لأن الحب حررها.



ظل إيليا وقتاً مديداً يتأمل جدار غرفته. أخيراً قرر التوسل لملاكه. قال:

- "روحي في خطر".

بقي الملاك ساكتاً. تردد إيليا في المتابعة، لكنه قد تأخر في طلبه:وهو لا يقدر أن يلتمسه دونما هدف.

"عندما أكون أمام المرأة، تضطرب مشاعري".

- "بالعكس، أردف الملاك. وهذا يزعجك. لأنك قاب قوسين من عشقها."

خجل إيليا، لأن الملاك عرف روحه.

قال:"الحب خطر".

ـ" كثيراً، أكد الملاك. والآن؟"

ثم توارى.



لم يشعر ملاكه بالشكوك التي كانت تؤرقه. نعم، كان يعرف الحب؛ رأى ملك إسرائيل يتخلى عن السيد لأن جزابيل، أميرة من صيدا، غزت قلبه.

يقص التراث أن الملك سليمان فقد عرشه بسبب أجنبية. والملك داود أرسل أفضل أصدقاءه إلى الموت لأنه سقط في حب زوجته. وبسبب داليا، سجن شمشون وثمل له الفلسطينيون عينيه.

كيف، ما كان يعرف الحب؟ التاريخ يغص بالأمثلة المأساوية. وحتى إن لم يعرف الكتابات المقدسة، كان أصدقاؤه مثلاً ـ وأصدقاء الأصدقاء ـ قد ضاعوا في ليال طويلة يغمرها الانتظار والمعاناة. إن كان له امرأة في إسرائيل لصعب عليه أن يغادر مدينته لما أمره السيد، والآن لما كان في الوجود.

قال لنفسه:"أنا أخوض معركة لا مآل لها. سيربح الحب هذه المعمعة، وسأحبها ما دمت حياً.

أعدني يا سيد إلى إسرائيل لكي لا أعبر لهذه المرأة عن أحاسيسي تجاهها. لأنها هي لم تحبني، وسترد علي أن قلبها دفن مع جسد زوجها، البطل".

في صبيحة الغد، رجع إيليا ليرى القائد. علم أن عدداً من المخيمات احتل.

"ما هي الآن نسبة المحاربين؟"

ـ أنا لا أقدم أنباء لأعداء جزابيل.

ـ أنا مستشار الحاكم. عيّنني مساعداً له البارحة مساء، لقد أُعلمت وعليك أن تجيب.

كان القائد يبغي وضع حد لحياة الغريب.

ـ لدى الآشوريين جنديان مقابل واحد عندنا"، أجاب بعد لأي.

كان إيليا يعلم أن العدو بحاجة لقوة متفوقة، فقال:

ـ إننا نقترب من اللحظة المثالية لبدء مفاوضات السلم.

ـ سيعرفون أننا كرام نبلاء وسنجني أفضل الشروط. فهم يعرفون مقولة أحد القادة القدماء: لاحتلال مدينة يجب توفر خمسة غزاة مقابل مدافع واحد.

ـ سيوفرون هذا العدد إن لم نهاجم الآن.

ـ رغم كل تدابير التموّن، ليس عندهم ماء يكفي كل هؤلاء الجنود. وهذا هو وقت إرسال السفراء.

ـ متى يكون هذا؟

ـ لنترك عدد المحاربين الآشوريين يكبر قليلاً. لما يصير الوضع لا يقبل الاحتمال، يُفرض عليهم الهجوم إنما، في نسبة ثلاثة أو أربعة لواحد من عندنا، يعرفون أنهم سيهزمون. آنئذ يعرض عليهم وفدنا السلم، حرية العبور وبيع الماء. هذه هي فكرة الحاكم.

ظل القائد ساكتاً وترك الغريب يرحل. حتى ولو مات إيليا، يقدر التمسك بهذه الفكرة. أقسم أن يقتل الحاكم إن وصل الوضع إلى هذه النقطة؛ ثم سينتحر لئلاّ يشهد غضب الآلهة. على هذا، في أي حال لن يسمح بأن يغدر المالُ شعبَهُ.



"أرسلني إلى أرض إسرائيل، يا سيد! كان إيليا يصرخ في كل أمسيات عبوره الوادي. لا تدع قلبي سجيناً في أكبر!"

حسب إحدى عادات الأنبياء الذين عرفهم في طفولته، كان يسوط نفسه كلما فكر بالأرملة. كان ظهره يرتعش، وخلال يومين هَذَى من الحمى.

عند اليقظة، كانت صورة المرأة أول ما رأى؛ كانت تداوي جروحه بالمرهم وزيت الزيتون. ما دام عاجزاً عن النزول إلى غرفة الأكل، كانت تحمل غذاءه إلى غرفته.

ما أن أحس بالشفاء، حتى استعاد نزهته إلى الوادي.

قال "أعدني إلى أرض إسرائيل، يا سيد! قلبي أسير في أكبر، لكن جسدي قادر أن يتابع الرحلة."

بان الملاك. لم يكن ملاك السيد هو الملاك الذي رآه في الجبل، بل هو الذي حماه والذي كان صوته عذباً أليفاً.

"فالسيد يصغي إلى صلوات أولئك الذين يتوسلون نسيان الكره. لكنه يصم أذنيه عن سماع أولئك الذين يهربون من الحب."



كان الثلاثة يتعشون سوية في كل مساء. هكذا وعدهم السيد ألاّ ينفد الطحين من الحق، ولا الزيت من الجرة.

نادراً ما تحدثوا في أثناء الوجبة. إنما في أمسية، طلب الفتى:

"ماذا يعني النبي؟"

" هو الرجل الذي مازال يسمع الأصوات التي سمعها يوم كان طفلاً وهو مستمر بتصديقها. هكذا، يتسنى له أن يعرف ما يفكر الملائكة".

قال الغلام: "نعم، أعلم ما تحكي. لي أصدقاء لا أحد يراهم غيري".

- لا تتسهم أبداً، حتى ولو قال لك الراشدون إن هذا حماقات. هكذا، ستعرف دوماً إرادة اللّٰه.

- سأعرف المستقبل، مثل دهاقنة بابل.

- الأنبياء لا يعرفون المستقبل. هم لا يأتون سوى بنقل الكلام الذي يوحي به السيد الآن. لذا أنا هنا، دونما أن أعرف متى أعود إلى بلدي. ولن يقول لي هذا قبل توفر الضرورة."

نضحت عينا المرأة بالحزن. نعم، سيسافر يوماً.



لم يعد إيليا يلتمس السيد. فقرر أن يأخذ المرأة وابنها عندما تأتي لحظة مغادرة أكبر. ولن يقول شيئاً حتى تحل الساعة.

ربما لم تشأ هي مبارحة أكبر، و ربما لم تشعر بما يحس نحوها ـ لأنه هو نفسه تأخر بفهم هذا. في هذه الحال، سيكرس جهده بشكل أفضل، لطرد جزابيل وإعادة بناء إسرائيل. وتكون روحه مرهونة للتفكير بالحب.

قال، متذكراً صلاة قديمة للملك داود:

- "أيها السيد، يا راعي عبدك. أرح روحي ونفسي، قرب المياه الصافية ولا تتركني أفقد الشعور بحياتي"

*

في أحد الأيام، بعد الظهر، رجع إلى البيت قبل عادته ووجد الأرملة جالسة في العتبة.

"ماذا تفعلين "

- ليس لدي ما أفعله.

- إذن تعلمي شيئاً ما. في هذا الوقت، كثير من الناس زهدوا بالحياة.لا يتضجرون، لا يبكون، بل اكتفوا بانتظار انقضاء الزمن. لم يقبلوا تحدي الحياة وهي لن تعد تتحداهم. وأنت تتعرضين لهذا الخطر. ردي، جابهي، إنما لا تستسلمي أو تزهدي.

"وهكذا، أحسستُ بمعنى الحياة منذ أن قدمتَ"، قالت وخفضت ناظريها.

خلال، جزء من الثانية، شعر أن بمقدوره أن يفتح لها قلبه. لكنه لم يجرؤ. كانت تعني بالتأكيد شيئاً ما.

"أوجدي ما يشغلك، قال ليبدل الموضوع، هكذا، يصير الوقت حليفاً، لا عدوّاً".

- ماذا أستطيع أن أتعلم؟"

فكر إيليا"كتابة بيبلوس. ستكون مفيدة لك إن اضطررت يوماً إلى السفر."

قررت المرأة أن تكرس جسدها وروحها لهذه المهمة. أبداً لم تفكر بمغادرة أكبر إنما ، حسب الطريقة التي تكلم بها ، ربما فكر أن يأخذها معه.

من جديد أحست بالحرية. من جديد استيقظت باكراً ومشت مبتسمة في حارات البلدة.

-"إيليا ما يزال حياً ، قال القائد للكاهن ، تأخرنا شهرين. لم تنجح بقتله".

ـ لا يوجد ، في أكبر كلها من يريد إنجاز هذا العمل. الإسرائيلي شفى المرضى ، زار الأسرى ، أطعم الجياع. لما كان أحد الناس يتشاجر مع جاره ليحل مسألة. يسارع إليه وينهي الإشكال ، والكل يقبل حكمه ـ لأنه صحيح. ولقد أفاد منه الحاكم لدى تزعزع شعبيته ، لكن أحداً لم يقم لهذا وزناً.

- التجار لا يرغبون في الحرب. إن كان الحاكم ذو شعبية و أقنع الشعب أن السلم أفضل ، لن نتمكن أبداً من طرد الآشوريين من هنا. فيجب أن يموت إيليا من دون تأخير.

أومأ الكاهن إلى قمة الجبل الخامس ، المتوارية أبداً وراء السحاب. "لن تسمح الآلهة أن يُذل بلدهم على يدي غريب. ستجد حيلة: وقوع حادث ما ، وسنعرف أن نستغل المناسبة".

- مثلاً؟

ـ لا أعرف. لكني سأنتبه إلى الاشارات. فكّر في وضع رموز دقيقة تخص القوات الآشورية. إن سُئلت، قل أن النسبة هي أربعة لواحد. وتابع تدريب فصائلك.

ـ لِمَ ألتزم بهذا؟ إن صارت النسبة خمسة لواحد، ضعنا.

ـ لا: نصير متساويين. عند وقوع المعركة، لن تصارع عدواً أضعف، فليس لأحد أن يعتبرك جباناً يتعسف مع الضعفاء. سيجابه جيش أكبر خصماً أقوى منه وسيربح المعركة ـ لأن قيادته وضعت خير استراتيجية.

قبل القائد العرض، مع أن الغرور وخزه. ومذئذ بدأ يخفي أنباء عن الحاكم وعن إيليا.

انقضى شهران، وفي ذلك الصباح، بلغ تعداد الجيش الآشوري نسبة خمسة جنود إلى مدافع واحد من أكبر. ففي كل لحظة يستطيع الهجوم.

منذ بعض الزمن، كان إيليا يرتاب بكذب القائد بصدد قوات العدو، لكن هذا الأخير كسب الرهان، عند بلوغ النسبة الحد الحرج، يسهل إقناع الشعب أن السلم خير مخرج.

هكذا قال لنفسه وهو يتجه إلى المكان الذي كان خلاله يساعد السكان على حل خلافاتهم، بعامة كان يقصد قضايا غير هامة: طيلة الأيام السبعة، مشاحنات بين الجيران، الشيوخ الذين لا يريدون الاستمرار في دفع الضرائب، التجار الذين رأوا

أنهم ضحايا الإجحاف في شؤونهم وأعمالهم.

كان الحاكم هنا، يظهر من حين إلى آخر، ليُرى أنه يعمل. والنفور الذي كان إيليا يشعر به تجاهه اختفى تماماً؛ كان اكتشف فيه إنساناً رصيناً، راغباً في تسوية الصعوبات قبل أن تتفاقم ـ مع أنه لا يؤمن بالعالم الروحي ويخشى الموت كثيراً.

وفي عدة مناسبات كان يستخدم سلطته لإعطاء قرار إيليا قوة القانون. وفي مرات أخرى، كان يعارض رأياً، ومع الزمن، وعى إيليا أنه محق.

صارت أكبر نموذجاً للمدينة الفينيقية. وضع الحاكم نظام ضرائب أعدل، جدد الشوارع وكان يتقن إدارة الأرباح الآتية من الرسوم المفروضة على السلع. وفي حقبة معينة أعلن إيليا منع استهلاك الخمر والبيرة، لأن غالبية المشاكل التي اعترضته تتعلق باعتداءات يرتكبها أفراد سكارى. لكن الحاكم أومأ أن هذا النوع من الأشياء يعمل على تضخيم المدينة. حسب السنن، كان الآلهة يفرحون عندما يترفه الناس في نهاية يوم عمل، وكانوا يحمون السكارى. ولما كانت المنطقة تنتج أفضل أنواع الخمور في العالم، ارتاب الأجانب في حال توقف استهلاك السكان للخمور التي ينتجونها. احترم

إيليا قرار الحاكم، وبعد تفكر، قبِلَ فرحاً أن ينتج الناس خير الأنواع.

"لستَ بحاجة لبذل هذا القدر من الجهد"، قال الحاكم، قبل أن يبدأ إيليا يوم العمل. معين إضافي يساعد الحكومة ببساطة بإشراكها بآرائه.

- أنا مشتاق جداً لبلدي وأتمنى العودة إليها. وها أنا أصل، بعد قيامي بهذه النشاطات، إلى الإحساس أني مفيد ونسيت أني غريب"، أجاب "ونجحت بوضوح بمراقبة حبي لها"، همس في سرّهِ.



توبعت المحكمة الشعبية منذ الآن من قبل حضور شديد الانتباه. رويداً رويداً، وصل الناس: كان بعضهم شيوخاً يعجزون عن العمل في الحقول وأتوا يصفقون، أو يستهجنون قرارات إيليا؛ وكان آخرون - أطرافً مباشرين في الأمور التي ستعالج - إما لأنهم ضحايا، أو لأنهم سيفيدون من الحكم. وكان ثمة النساء والأطفال، الذين لقلة العمل، أتوا ليقتلوا وقتهم الحر.

قدم إيليا قضايا الصباح. كانت المشكلة الأولى حالة الراعي الذي حلم بكنز مخبأ في مصر قرب الأهرامات والذي كان

بحاجة لمبلغ عليه أن يؤديه. لم يذهب إيليا إلى مصر أبداً إنما كان يعرف أنها بعيدة جداً. شرح للراعي صعوبة العثور على الوسائل الضرورية للطرف الآخر، وإن كان قرر أن يبيع خرافه ويدفع ثمن حلمه، سيجد بالتأكيد من يشتريها.

ثم قدمت المرأة الراغبة في تعلم فن السحر الإسرائيلي. تذكر إيليا أنه ليس معلماً، فهو نبي فقط.

وبينما كان منكباً لوجود حل مفضل لقضية المزارع الذي لعن زوجة شخص آخر، تقدم جندي يغمره العرق، أبعد الجمهرة، وخاطب الحاكم.

"نجحت دورية في أسر جاسوس. واقتيد إلى هنا!"

سرت رعشة لدى الحضور؛ فهم لأول مرة يحضرون محاكمة من هذا النوع.

"الموت! صرخ أحدهم. الموت للأعداء!"

بناء على الهدير، بدا كل المشاركين موافقين، وفي طرفة عين، انتشر الخبر في المدينة وغص الميدان بالناس. ونظر إيليا بالدعاوى الأخرى بصعوبة قصوى. في كل لحظة، كان يُقاطع برغبة الحشود بجلب الغريب في الحال.

أجاب:

-"لا أستطيع أن أدين شأناً كهذا. هذا من اختصاص السلطة في أكبر".

واستفهم أحدهم:

ـ ماذا أتى الآشوريون يفعلون هنا؟ ألا يرون أننا في حالة سلم منذ أجيال؟

ـ لماذا يريدون ماءنا؟ صرخ آخر، لماذا يهددون مدينتنا؟

ـ منذ أشهر لا يجرؤ أحد جهاراً أن يتحدث عن وجود العدو. رأى كل الناس عدداً متزايداً من الخيم ينصب في الأفق. أكد التجار ضرورة بدء مفاوضات السلم على الفور، مع أن شعب أكبر كان يرفض أن يصدق أنه أمام خطر غزوة.

عدا اقتحام منتظم لتشكيل صغير، يوضع له حد في الحال، الحروب غير قائمة إلا في ذاكرة الكهنة. كان هؤلاء يتذكرون بلداً اسمه مصر، بخيوله، بعربات حربه وبآلهته الأشبه بالحيوانات. لكن هذا توارى منذ زمن غير قصير، لم تعد مصر أمة قوية ضاربة، والمحاربون ذوو البشرة السمراء الذين يتكلمون لغة مجهولة رجعوا إلى بلدهم. الآن يهيمن أبناء صيدا وصور على البحار، يبسطون إمبراطورية جديدة في العالم، ورغم أنهم محاربون متمرسون، فقد اكتشفوا طريقة جديدة للصراع: التجارة.

سأل الحاكمُ النبي إيليا:

ـ "لماذا هم عصبيو المزاج؟"

ـ لأنهم يشعرون أن شيئاً قد تغير. أنت تعرف مثلي أن الآشوريين يستطيعون منذ الآن أن يهاجموا في كل لحظة. وأن القائد يكذب في عدد جحافل العدو.

ـ إنما لا يجوز له أن يتحامق ويقول الحقيقة! إن هذا يبذر الذعر.

ـ الناس يحدسون ساعة الخطر؛ عندهم ردود فعل غريبة، توقعات، يشعرون بوجود شيء ما في الجو. يحاولون إخفاء الحقيقة، ظانين أنهم غير جديرين بمواجهة الوضع الماثل. حتى الآن، قصوا أحداثاً، لكن لحظة مواجهة الحقيقة تدنو.

وصل الكاهن.

"هلموا إلى القصر نجمع المجلس الاستشاري في أكبر. القائد في طريقه إلينا".

ـ لا تفعل هذا، قال إيليا بصوت منخفض للحاكم. إنهم يجبرونك أن تفعل ما لا تريد.

ـ هلموا، ألح الكاهن. لقد أوقف أحد الجواسيس ويجب اتخاذ تدابير عاجلة.

ـ أعد الأمر إلى أوساط الشعب، همس إيليا. الشعب سيساعدك، لأنه يعمل للسلم ـ لا بل يعترض على إعلان الحرب.

ـ "هاتوا هذا الرجل إلى هنا! "أمر الحاكم.

أرسـل الحضـور صـرخة حبـور. لأول مـرة سيحضـرون التـآم المجلس.

"نحن لا نستطيع أن نفعل هذا! أردف الكائن. هذا شـأن دقيـق حرج، يجب حله بهدوء!"

أصوات هائجة. وعديد من الاحتجاجات.

"هـاتوه إلى هنـا ، كـرر الحـاكم. سـيحاكم علـى أرض هـذه الساحة، بين جماهير الشعب. نحـن نعمـل سـوية لتحويـل أكـبر إلى مدينة مزدهرة، ويداً واحدة سندين من يهددها."

قوبل القرار بموجة من التصفيق. بانت فصيلة من الجنـد ، تجـر رجلاً شبه عارٍ، مغطى بالدم. لقد عُذب بشراسة قبـل أن يصـل إلى هنا.

ساد صمت، تاركـاً ذيوله على الحضور، سمـع صـراخ كقبـاع الخنازير وصخب الفتيان الذين كـانوا يلعبـون في ركـن يقابـل الساحة.

صرخ الحاكم:

ـ "لماذا فعلتم كل هذا بالأسير".

أجاب الحارس:

ـ "لقد انتفض بل قاوم. وأعلن انه ليس جاسوسـاً. وأنـه قـدم إلى هنا ليحدثك."

طلب الحاكم جلب ثلاثة مقاعد، وأتى خدمه بمعطف العدالة، الذي يلبسه كلما انعقد مجلس أكبر.

أخذ الكاهن الأكبر والحاكم مكانيهما. وترك المقعد الثالث للقائد الذي لم يصل بعد.

ـ"أعلن رسمياً فتح محكمة مدينة أكبر. ليتقدم المسنون."

مثل لفيف من الشيوخ وجلس في نصف دائرة خلف مقاعد الكبار. كان مجلس المعمرين قد فقد دوره؛ سابقاً كانت أدوارهم موضع احترام وذات تأثير، أما اليوم لم يبق لهذه الشريحة سوى دور شكلي: فهم هنا للتصديق عل كل قرارات الحكومة.

بعد أن اتخذت بعض الشكليات ــ التماس آلهة الجبل الخامس، وتفخيم أسماء بعض أبطال الماضي ــ توجهت المحكمة إلى الأسير:

"ماذا تريد؟"

لم يجب الرجل، وواجه الأمر بأسلوب غريب، كأنه ندّ للسائل.

ألح الحاكم: "ماذا تريد؟"

مسّ الكاهن يده وهمس: "نحن بحاجة لترجمان. إنه لا يعرف لغتنا."

أُعطـي الأمـر وانطلـق حـارسٌ لجلـب التـاجر القـائم بـدور الترجمان. كان التجار مشغولين أبداً بأعمالهم وأرباحهم فلا يحضـرون الجلسـات الـتي يعقـدها إيليـا. وبينمـا كـانوا ينتظرون، تمتم الكاهن: "ضربوا السجين لأنهم خافوا ،دعني أقود هذه الدعوى ولا تقل شيئاً.الذعر جعلهم عدوانيين، وإن نظهـر دلـيلاً علـى التسـلّط، نتعـرض لخطـر ضـياع مراقبـة الوضع."

لم يجب الحاكم. هو الآخر خاف. بحث عن إيليا بعينيه، في المكان الذي كان يشغله، لم يره.



وصل التاجر، يقوده الحارس بعنف. احتج التاجر على جلبه للمحكمة لأنه خسر وقته فضلاً أن لديه عدداً من الأمور. لكن الكاهن، بنظرة قاسية أبلغه أمراً بالهدوء وترجمة ما يدور.

سأل الحاكم:

ـ"ماذا أتيت تفعل هنا؟ "

أجاب:" لست جاسوساً. أنا قائد كبير في الجيش. أتيت أطرح الأمر عليك."

فراح الحضور، الذي كان صامتاً تماماً، يردد همساً الجملة المترجمة. وكان العامة يؤكدون أن هذا كذب وطلب له عقوبة الموت الفوري، طلب الكاهن السكوت والتفت من جديد إلى الأسير:

-"ماذا تريد أن تبحث؟"

أجاب الآشوري:" الحاكم معروف برصانته. نحن لا نبغي تدمير هذه المدينة: ما يهمنا، هو صيدا وصور. بينما تقع مدينة أكبر في منتصف الطريق وتراقب هذا الوادي. إن أُكرهنا على القتال، خسرنا الوقت والرجال. جئت اقترح تسوية."

أردف إيليا:

"هذا الرجل يقول الحقيقة". لاحظ أنه محاط بفصيل من الجند يمنعونه من رؤية مكان وجود الحاكم. "يفكر كما نفكر. السيد اجترح معجزة، وسيضع حداً نهائياً لهذا الوضع الخطر."

قام الكاهن ونادى الشعب:

"ألا ترون؟ يريدون تدمير مدينتنا من دون معركة!"

أردف الحاكم:

-" تابع!"

لكن الكاهن تدخل ثانية:

"حاكمنا رجل طيب، يرفض إراقة الدم. لكننا في حالة حرب والأسير الماثل أمامكم عدو! "

صاح أحد الحضور:

- "هذا عين الصواب".

وعى إيليا خطأه. الكاهن يتلاعب بمخاوف الجمهور بينما لا يسعى الحاكم إلا لإقامة العدل. حاول أن يقترب لكنه مُنع. مسكه جندي من ذراعه.

"انتظر هنا. في آخر المطاف. الفكرة فكرتك."

التفت إيليا: إنه القائد، وابتسم.

- ليس لنا أن نصغي لأي اقتراح، تابع الكاهن، تاركاً الانفعال يبرز من حركاته وكلماته. إن دللنا أننا نريد التفاوض، كان هذا قرينة على خوفنا. وشعب أكبر جسور. وهو في وضع يمكنه من مقاومة أية غزوة.

- "هذا الرجل يسعى إلى الصلح"، قال الحاكم، مخاطباً السامعين.

علا صوت:"التجار يسعون إلى المصالحة. وكذلك الكهنة. والحاكم يبغى السلم. لكن الجيش لا يتمنى سوى شيء واحد: الحرب!"

- ألا ترون أننا توصلنا إلى مواجهة التهديد الديني في إسرائيل من دون أن نخوض أي حرب؟ لم نرسل جيوشاً، ولا حواجز،

بـل جزابيـل. الآن هـم يعبـدون الإلـه بعـل مـن دون أن نحتـاج التضحية بأي رجل في الجبهة.

وصرخ الكاهن بنبرة أشد:

ـ "وهم لم يرسلوا امرأة جميلة، بل محاربيهم!"

طلب الشعب الموت للآشوريين. أخذ الحاكمُ الكاهنَ من ذراعه، وأمر:

ـ اجلس، أنت تذهب بعيداً، أنت تغالي.

ـ بل أنت صاحب فكرة الدعوى العامة. أو بالأصح، هو الخائن الإسرائيلي، الذي يبدو أنه أملى تصرفات حاكم أكبر.

ـ سأجلو الأمر معه فيما بعد. الآن يجب أن نعلم ماذا يريد الآشوري. خلال أجيال، سعى الناس إلى فرض إرادتهم بالقوة؛ قالوا ما يشاؤون، لكنهم لم يقيموا وزناً لما يريد الشعب، وآلت كل هذه الإمبراطوريات إلى الفناء. صار شعبنا عظيماً لأنه تعلم جيداً أن يصغي. هكذا، طورنا التجارة، بسماع ما يريد الآخر وبفعل الممكن لنشده إلينا. الخلاصة هي الربح.

هش الكاهن رأسه.

"تبدو كلماتك رصينة، وهذا أسوأ الأخطار. إن أدليت بحماقات، لسهل البرهان على أنك مخدوع. إنما ما أكدته يؤدي بنا فوراً إلى المكيدة."

تدخل الرعيل الجالس في الصف الأول في النقاش. حتى الآن، كان الحاكم غير مضطراً للاهتمام برأي المجلس، و حتى أن تأخذ أكبر شهرة أعظم ؛ صور وصيدا أرسلتا مستشارين ليطلعوا على مجريات الأحداث؛ كان اسم الحاكم يصل إلى أذني الإمبراطور، ومع قليل من حسن الحظ، يستطيع في أواخر أيامه أن يكون وزير البلاط. أما اليوم، فيتصدى الناس على الملأ لسلطته. إن لم يأخذ على الفور التدابير، فقد احترام الشعب، ولما تمكن من إصدار قرارات هامة بعد الآن لأن أحداً لم يعد يطيعه.

قال للأسير:"تابع"، متجاهلاً نظرة الكاهن الحاقدة وطالباً أن يترجم المترجم سؤاله.

قال الآشوري:"جئت أطرح تسوية. تدعوننا نمر، ونحن نزحف إلى صيدا وصور. ما أن تسقط المدينتان ــ وستسقطان بالتأكيد، لأن تشكيلات عريضة من محاربيهما على متن السفن التجارية ــ سنكون كراماً مع أكبر. ونبقيكم حكاماً". صرخ الكاهن وهو ينهض:

ـ "ألا ترون؟ يفكرون أن الحاكم جدير بمبادلة شرف أكبر مقابل منصب رفيع!"

فراح الجمهور يهدر. هذا الأسير الجريح، شبه العاري يبغي فرض شروطه! رجل مهزوم يقترح استسلام المدينة! نهض

بعضهم واستعد للاعتداء عليه. وبصعوبة استطاع الحرس السيطرة على الموقف.
أردف الحاكم الذي حاول الكلام بالنبرة الأعلى:
"مهلاً! أمامنا رجل مسالم، إذن ليس له أن يخيفنا. نحن نعرف أن جيشنا هو الأفضل تدريباً وأن محاربينا هم الأكثر يقظة، ما عندنا شيء نبرهن عليه أمام أحد. إن قررنا الصراع، سننتصر، لكن الخسائر ستكون فادحة."
أغمض إيليا عينيه والتمس أن يتوصل الحاكم إلى إقناع الناس، وتابع: "حدثنا جدودنا عن الإمبراطورية المصرية، لكن هذا العهد أفل. الآن نحن نعود إلى العصر الذهبي. آباؤنا وأجدادنا عاشوا بسلام. لِمَ يفرض علينا تحطيم هذا التراث؟ الحروب الحديثة تتم في التجارة، وليس في ساحات المعركة."
شيئاً فشيئاً، عاد الرعيل إلى الهدوء. أصبح الحاكم أقرب إلى النجاح.
لما هدأ الصياح والهدير، خاطب الآشوري.
"ما تعرضه ليس كافياً. عليكم أن تدفعوا المكوس التي يؤديها التجار لنعطيكم ممراً في أراضينا".
أردف الأسير:
- "صدقني، أيها الحاكم، لا خيار أمامكم. عندنا ما يكفي من الرجال لاستباحة هذه المدينة وقتل سكانها. لقد عشتم

السلم دهراً، ولم تعودوا أهلاً للقتال، أما نحن، نحن في طريقنا إلى احتلال العالم".

عاد الصياح والصراخ إلى المحكمة. قال إيليا في سرّه: "لا يقدر أن يتراجع الآن."إنما صعبت مجابهة الأسير الآشوري الذي، وهو في قبضتهم، يفرض شروطه. في كل لحظة كان الجمهور يتضخم، لاحظ إيليا أن التجار عافوا أعمالهم واختلطوا بالمشاهدين، قلقين من تدهور الأحداث. ارتدت المحاكمة أهمية كاسحة؛ لا مجال للتراجع، القرار هو التفاوض أو الموت.



بدأ الشهود ينحازون: البعض دافع عن الصلح والسلم، وطلب الآخرون الدفاع عن أكبر. همس الحاكم في أذن الكاهن: "هذا الرجل تحداني على الملأ. إنما تحداك أنت أيضاً."

التفت الكاهن إليه، متكلماً بصوت يكاد لا يسمع، "أصدر أمراً على الفور بموت الآشوري".

"أنا لا ألتمس، أنا أقرر. أنا الذي يبقيك في السلطة ولي أن أضع حداً لهذا الوضع عندما أشاء. أتفهم؟ أعرف تضحيات تهدئ غضب الآلهة عندما أُكرهنا على تبديل الأسرة الحاكمة. هذه ليست المرة الأولى: حتى في مصر، دامت الإمبراطورية آلاف السنين، واستبدل العديد من السلالات

الحاكمة. ومع ذلك بقي الكون مستقراً ولم تسقط السماء على رأسنا".

أصغى الحاكم"القائد موجود بين الحضور، مع تشكيل من العسكر. إن أصريت على مفاوضة هذا الرجل، أقول للعالم أن الآلهة تخلت عنك. وتقال أنت من مركزك. سنتابع الدعوى. وأنت ستنفذ بالضبط ما أمرتك به".

لو أُخذ رأي إيليا، لدبر الحاكم حلاً. لطلب من النبي الإسرائيلي التأكيد أنه رأى في ذروة الجبل الخامس ملاكاً، كما قص عليه. وتذكر قصة بعث ابن الأرملة. ولوقف الحاكم إلى جانب الرجل الذي دل أنه يقدر أن يأتي بالأمور الخارقة، وليس مع من لم يقدم أي قرينة على أي نوع من السلطة فوق الطبيعة.

لكن إيليا تركه، ولم يبق له خيار. فضلاً عن أنه أسير لا أكثر - وما من جيش في العالم يعلن حرباً لأنه خسر جندياً.

"أنت من أنصار هذا الطرف"، قال الكاهن. "وفي يوم ما يفاوض الطرف الآخر". هز الكاهن الرأس. وصدر القرار بعيد هذا.

"لا أحد يتحدى أكبر، أعلن الحاكم. ولا يدخل أحد مدينتنا من دون موافقة شعبها. أنت حاولت أن تفعل هذا وأدنت بالموت."

من حيث هو، خفض إيليا عينيه. وابتسم القائد.
اقتيد الموقوف، برفقة شريحة تزداد كثافة، إلى زاوية غير بعيدة عن الأسوار.
وهناك، انتزع ما بقي عليه من الثياب وترك عارياً. دفعه جندي إلى قعر حفرة. فتكاثف الناس المتراصون حوله، وتدافعوا إلى المكان الأقرب.
كان أحد الجنود يتباهى بثوب الحرب وتقدم نحو العدو مفاخراً بشجاعته. "جاسوس يظهر بزي امرأة لأنه جبان!" هذا ما قاله الحاكم بصوت جهوري ليسمعه الجميع. "لذا حكمت عليك بمغادرة هذه الحياة التي لا تحترم إلا المقدامين."
هزأ الشعب من السجين وصفقوا للحاكم.
تكلم السجين لكن المترجم لم يكن حاضراً. ولم يفهمه أحد. تمكن إيليا من شق دربه ليلتحق بالحاكم، لكنه وصل متأخراً. ولما مس قفطانه، دفعه الحاكم بعنف قائلاً:
" هذه خطيئتك أنت أردت محاكمة جماهيرية" أردف إيليا "حتى لو التأم مجلس أكبر سراً، لجنى القائد والكاهن ما يريدان. كنت محاطاً بالحرس طيلة وقت المحاكمة، فقد رتبوا كل شيء."

جـرت العـادة بـالرجوع إلى الكـاهن لتحديـد فـترة التعـذيب. انحنى الأخير، تناول حجراً وأعطاه للحاكم: لم يكن الحجر ضـخماً بحيـث يجلـب المـوت العاجـل، ولا صـغيراً يمـد برهـة المعاناة إلى أقصى حد.

"المجد لك"

ـ "أنا مكره على هـذا"، تمتم الحـاكم لكـي يسمعه الكـاهن فقط. "لكنك تعرف أن هذا ليس هو الدرب المستقيم".

ـ "طيلة هذه السنين، أكرهتني على انتقاء المواقف الأصلب، بينمـا أفـدت أنـت مـن القـرارات الـتي ترضـي الشـعب" أردف الكـاهن، بصـوت خفـيض هـو الآخـر. "لقـد جابهـت الريبـة والإدانـة، و أمضـيت الليـالي مـن دون رقـاد، يلاحقـني شـبح الأخطـاء الـتي قـد اجترحهـا. لكـني لسـت جبانـاً، و أكـبر هـي اليوم مدينة مكرمة لدى العالم أجمع."

ذهب غفر من الناس لجلب الحجـارة المبتغـاة. خـلال هنيهـة، لم يسمع سوى وقع الحصى المتصادمة. تابع الكـاهن:

"ربمـا ضـللت سـواء السـبيل بـإنزال المـوت بهـذا الرجـل. لكـني واثق من مجد مدينتنا؛ نحن لسنا خونة."



رفع الحاكم اليد ورمى الحجر الأول؛ تفاداه السجين. لكن الرعيل في وسط الصراخ والسخرية بدأوا الرجم.
كان المدان يحاول وقاية وجهه بذراعيه، فتقع الحجارة على الصدر، الظهر، البطن. أراد الحاكم الذهاب؛ لقد شهد هذا المشهد مراراً، كان يعرف أن الموت بطيء ومضنٍ، حتى يؤول الوجه إلى كومة من العظم، من الشعر والدم، وأن الناس سيتابعون الرجم حتى بعد مغادرة الروح الجسد. خلال دقائق، كف السجين عن حماية نفسه وأرخى ذراعيه. إن كان رجلاً طيباً في الحياة، توجه الآلهة واحداً من الحجارة، تصيب مقدمة الجمجمة، فتؤدي إلى فقدانه الوعي. بالمقابل. إن كان قد قرر ارتكاب الحماقات، يبقى واعياً إلى آخر دقيقة.
كان الجمهور يصرخ، يرشق بالحجارة. بوحشية متمادية. وكان المدان يحمي نفسه ما استطاع. بغتة، أبعد الرجل ذراعيه وتحدث بلغة يفهمها الجميع. وفجأة، صمت الناس.
"عاشت آشوريا! قال. في هذه اللحظة، أتأمل صورة شعبي وأموت سعيداً، لأني أموت كما القائد الذي حاول إنقاذ حياة مريديه ومظاهريه. أريد اللحاق بكوكبة الآلهة وأنا مسرور لأني أعرف أنّا سنملك الأرض!"
ـ "أسمعت؟ "قال الكاهن. "لقد أصغى وفهم كل ما دار في أثناء المحاكمة!"

لقد أعجب الحاكم به، تكلم الرجل بلغتهم، وعرف الآن أن مجلس أكبر انقسم "لست في الجحيم، لأن رؤيا بلادي تعطيني المجد والقوة،رؤيا بلادي تعطيني الغبطة! عاشت آشوريا! "هتف الرجل ثانية. استفاق الجمهور من المفاجأة،وعاد إلى الرجم. حافظ الرجل على ذراعين متباعدين ولم يسع إلى حماية نفسه. كان محارباً يقظاً. بعد لحظات، بدأت رحمة الآلهة: نزل حجر على جبهته فوقع في غيبوبة.
"نقدر الآن أن نغادر المكان، أعلن الكاهن. فقد تكفل شعب أكبر بإتمام المهمة."



لم يعد إيليا إلى الأرملة. راح يطوف دونما هدف في الصحراء.
"والسيد لم يفعل شيئاً" كان يكلم النباتات والصخور.
لقد تأسف لقراره، الذي رأى فيه أنه يحمل وزر موت إنسان.
بقبول اجتماع سري لمجلس أكبر،كان الحاكم يقدر أن يصطحبه؛ كانا واجها الكاهن والقائد،و لكان حظهما أفضل من حالة المحاكمة العامة.
والأسوأ: لم يكن يملك القدرة و الأسلوب الذي وجهه الكاهن إلى الرعية؛ حتى إن لم يكن موافقاً على كل هذه الموضوعات، كان مكرهاً على الاعتراف أن هذا الرجل

يملك قدرة كبيرة على الإدارة و الاقناع. انكب على تذكر كل تفصيلات هذا المشهد لكي يجابه في يوم ما ـ في إسرائيل ـ الملك وأميرة صور.

مشى ومشى على هواه، متأملاً الجبال، المدينة والمعسكر الآشوري في المدى. لم يكن سوى نقطة في هذا الوادي الذي يكتنفه عالم واسع جداً، حتى لو طاف فيه طيلة حياته لما بلغ نهايته. إن أصدقاءه وأعداءه ربما أدركوا خيراً منه الأرض التي يعيشون في رحابها:

استطاعوا الترحال إلى بلدان قصية، الإبحار في بحار لا يعرفونها، الفجور دونما شعور بالفضيلة أو الذنب. لم يعد أحد منهم يصغي إلى ملائكة الطفولة، أو يطرح مسألة النضال باسم السيد. كانوا يعيشون وكانوا سعداء. كان إيليا شخصاً كالآخرين، والآن، وهو يتنزه في الوادي تمنى ألاّ يسمع أبداً صوت السيد وملائكته.

لكن الحياة ليست أمنيات، بل هي فعل كل الناس. تذكر أنه حاول غير مرة التخلي عن مهمته، ومع ذلك كان هنا، في وسط هذا الوادي، لأن السيد طلب منه هذا.

"قد لا أكون سوى نجار، يا ربي، وربما كنت مفيداً لمشروعك."

لكـن إيليـا كـان أنجـز مـا طلـب منـه، حـاملاً وزر الحـرب القادمـة، مذبحـة الأنبيـاء علـى يـد جزابيـل، رجـم الجنـرال الآشوري، الخشية من حبه أرملة أكبر. السيد قدم له هدية، وهـو لا يعـرف مـا يفعـل بهـا. مـن وسـط الـوادي انبثـق ضـوء. لم يكـن هـذا هـو ملاكـه الحـارس - ذاك الـذي يصـغي دومـاً، لكنه نادراً ما يُرى. كان هذا ملاك السيد الذي قدم ليسـري عنه.

"لا أقدر أن أفعل شيئاً هنا، قال إيليا. متى أعود إلى إسرائيل؟"

ـ "عنـدما تـتعلم أن تـبني"، رد المـلاك. "تـذكر مـاذا علـم الله موسـى قبـل المعركـة.استـفد مـن كـل لحظـة في حياتـك، إن كنـت لا تريـد أن تنـدم في المسـتقبل، وتقـول إنـك أضـعت شـبابك. في كـل عمـر، يعطـي السـيد للإنسـان اهتماماتـه الخاصة."

قال الرب لموسى:

"لا تخف، لا تدع الخوف يتحكم بك قبل المعركة، لا ترتعد أمام خصومك. من زرع كرمة ولم يفد منها بعد، ليفعل على الفور، لأنه إن مات في أثناء الجهاد، لن يكون ثمة أحد يفيد منها أو يأكل ثمرها. الرجل الذي يعشق امرأة، ولم يحتضنها بعد، ليعد إليها، لأنه، إن مات خلال المعمعة، لن يطأها غيره."

مشى إيليا فترة أخرى من الزمن، ساعياً إلى إدراك ما انتظره. بينما كان يستعد للعودة إلى أكبر. رأى المرأة التي أحبها جالسة على صخرة في كعب الجبل الخامس ـ على بعد دقائق من مكان وجوده.

"ماذا تفعل هي هنا؟ أمطلعة على الدعوى والمحاكمة، على الإدانة بالموت، والأخطار التي واكبتها بعدئذ؟ "

رأى أن يخطرها في الحال. قرر الذهاب إليها.

لحظت وجوده فبادرته بإمارة ما. بدا إيليا كمن نسي كلام الملاك. لأن قلقه رجع إليه بغتة. تظاهر أنه مشغول بقضايا المدينة، لئلا تخمن التشوش الذي يسيطر على قلبه وفكره.

"ماذا تفعلين هنا؟" سألها ما أن وصل إليها.

ـ أتيت سعياً وراء قليل من الراحة والتنسم الطلق. الكتابة التي أتعلمها جعلتني أفكر باليد التي خططت الوديان، التلال، ومدينة أكبر.

لقد أعطاني التجار حبراً من كل الألوان لأنهم يرغبون في أن أكتب لهم.

فكرت أن أستفيد منها لوصف العالم الذي يحيط بي لكني أعلم أن هذا صعب: حتى ولو امتلكت الألوان، السيد وحده يتوصل إلى مزجها بهذا الانسجام."

استمرت في التحديق إلى الجبل الخامس. لقد صارت مختلفةً تماماً عن الشخص الذي صادفه قبل أشهر، تلم حطباً على باب المدينة.

وجودها وحيدة، في وسط الصحراء أوحى له بالثقة والتقدير.

"لماذا أخذت كل الجبال اسماً عدا الجبل الخامس، بل عرف بالرقم فقط؟"سأل إيليا

- "لئلا تشب المنازعات بين الآلهة. أجابت. يقص التراث أنه إذا أعطى الإنسان هذا الجبل اسم أحد الآلهة، لدمر الآلهة الآخرون، الخائفون، الأرض. لذا سمي الجبل الخامس. لأنه التل الخامس الذي رأيناه وراء الأسوار. هكذا، لا نهين أحداً، ويبقى الكون سليماً".

صمتا بعض الوقت. ثم كسرت المرأة السكون:

"فكرت بالألوان، ووردني الخطر الذي تمثله كتابة بيبلوس (جبيل). إنها تذم الآلهة الفينيقية والسيد ربنا".

ــ ليس ثمة سوى السيد، قاطعها إيليا. ولكل البلدان المتحضرة كتابتها.

- لكن هذه مختلفة. لما كنت صغيرة، كنت أذهب كثيراً إلى الميدان لأتأمل العمل الذي يتمهُ راسم الكلام للتجار. كانت رسومه، المؤسسة على الكتابة المصرية، تتطلب مهارة ومعرفة. الآن، انحطت مصر القديمة والقادرة، افتقرت للنقود

لشـراء أي شـيء، ولم يعـد أحـد يسـتخدم لغتهـا. بحـارة صـور وصيدا ينشرون كتابة بيبلوس في العـالم أجمـع. يمكـن رسـم ونقش الكلام والاحتفـالات الدينيـة علـى ألـواح فخاريـة ونقلـها من شعب إلى آخـر. مـاذا يحـدث في العـالم إذا راح بعـض النـاس من دون وازع ولا رادع يستخدمون الشعائر ليدخلوا في الكـون والحياة؟"

وعى إيليـا قصـد المـرأة. كتابـة بيبلـوس مبنيـة علـى نهـج شـديد البسـاطة:

يكفي تحويل الرسوم المصرية إلى أصوات، ثم إعطاء الحـرف صـوته. حسـب نظـام ترتيـب هـذه الأحـرف، يمكـن خلـق كـل الأصـوات المفيـدة ووصـف كـل شـيء موجـود في الحيـاة. بعـض الأحرف صعبة اللفظ؛ حل اليونـان الإشـكال بإضـافة خمسـة حـروف ــ سميـت الحـروف الصـوتية ــ إلى حـروف بيبلـوس العشرين وبعض الرسوم. عمدوا هـذا التجديد بالاسم الأبجـدي الذي يستخدم الآن إشارة إلى شـكل الكتابة الجديد.

فسهلت جداً العلاقات التجارية بـين مختلف الثقافـات. فالكتابـة المصـرية تتطلـب كـثيراً مـن الفـراغ والمهـارة لتحقيـق التعـبير عـن الأفكـار. ومعرفـة موسـوعية، لترجمتهـا؛ كـانـت تُفـرض علـى الشعوب الخاضعة، لكنها لم تعش عند انحطـاط الإمبراطوريـة.

خلال هذا الوقت، انتشر نظام بيبلوس بسرعة في العالم، ولم يعد استخدامه متعلقاً بقدرة فينيقيا الاقتصادية.
لقد أرضى أسلوب بيبلوس والموالفة اليونانية تجار مختلف الأمم. منذ عهود سحيقة، كانوا هم الذين يقررون ما يجب أن يستمر في التاريخ. وما يتوارى بموت هذا الملك أو هذه الشخصية البارزة. كان الوضع المتطور يشير أن الابتكار الفينيقي كان مقدراً له أن يصير اللغة المتداولة لتسيير الأعمال، يعيش مع بحارتها، ملوكها، أميراتها الفاتنات، منتجي الخمر، وسادة صانعي الزجاج.
"أيواري اللّه الكلمات؟" استعلمت المرأة.
- "هو فيها دوماً، أجاب إيليا. لكن كل شخص سيكون مسؤولاً أمامه عن كل ما يكتب".
وسحبت من كم قفطانها رقيم فخاري يحمل نقشاً.
"ما يعني هذا؟ "سأل إيليا
- "كلمة الحب، المحبة."
تناول إيليا الرقيم، إنما لم يجرؤ أن يسأل: لمَ مدت له الرقيم. على هذه اللويحة الفخارية، بعض الإشارات والرسوم تلخص مقولة بقاء النجوم عالقة في السماوات وسبب مشي الناس على الأرض.
أراد إعادتها لها لكنها أبت.

"كتبتُ هذا لك. أنا أعرف مسؤوليتك، وأن عليك أن تسافر يوماً ما، وإنك ستتحول إلى عدوٍ لبلدي لأنك تبغي إبادة جزابيل. في ذلك اليوم، ربما أكون إلى جانبك، أهبك مؤازرتي لكي تنجز مهمتك. أو ربما أقاتل ضدك، لأن دم جزابيل هو دم بلدي؛ فهذه الكلمة التي في يدك، خاصة بالأسرار والرموز. لا أحد يعرف ماذا تثير في فؤاد امرأة ـ أو لدى الأنبياء الذين يحدثون اللّه".

ـ "أنا أعرف هذه الكلمة" قال إيليا وهو يضم اللويحة إلى قفطانه.

"جاهدت الليل والنهار ضدها، فإن كنت أجهل ما تترك في حنايا المرأة، أعرف ماذا تفعل بالرجل. شجاعتي تؤهلني لمجابهة ملك إسرائيل، أميرة صيدا، مجلس أكبر، لكن هذه الكلمة وحدها، الحب ـ المحبة، تدب الرعب في قلبي. قبل أن ترسميها على الرقيم، كتبتها عيناك في حناياي."

صمت الاثنان. كان ثمة موت الآشوري، جو المدينة المشحون، نداء السيد الذي ينجد في كل آن؛ لكن الكلمة التي نقشتها هي أقوى من كل هذا.

مد إيليا الرقيم،وأخذته. وبقيا هكذا إلى أن توارت الشمس وراء الجبل الخامس.

"شكراً" قالت على طريق العودة. "منذ زمن وأن أتطلع أن أقضي قيلولة ممتعة معك."

لما وصلا البيت، كان موفد الحاكم ينتظر: طلب من إيليا الذهاب إليه فوراً.

قال الحاكم:

"أنا وقفت إلى جانبك، ولتشكرني، بدوت جباناً. كيف أتصرف معك، بحياتك؟"

- "لن أعيش لحظة واحدة أكثر مما يريد السيد" رد إيليا. ا"لقرار بيده، وليس بيدك."

اندهش الحاكم أمام جرأة إيليا.

-"أنا أقدر أن آمر بقطع رأسك في الحال. أو أن تجر في شوارع البلدة، بدعوى أنك جلبت النكبة للشعب" أردف. "وليس الأمر بيد إلهك الواحد".

- "أياً كان قدري، سينفذ. إنما أريد أن تعرف أني لم أهرب؛ جنود القائد منعوني من الوصول إليك. كان يريد الحرب، وفعل كل شيء لتنشب".

قرر الحاكم وضع حد لهذا الحديث الهازل. فلا بد إذن من إجلاء خطته للنبي الإسرائيلي.

-"ليس القائد من يريد الحرب؛ كجندي جيد، وعى أن جيشه غير كفء لهذا، أنه بحاجة للتمرين والتدريب، وسيهلكه

العـدو. وكـرجـل شـريف، يعـرف أن هـذا ربمـا كـان داعيـاً لخجل ذريته. لكن الإباء والاعتداد صلّب قلبه".

ـ" رأى أن العدو خائف. لم يعرف أن المحـاربين الآشـوريين على أهبة الاستعداد: منذ أن ينضووا في الجيش، يغرسـون شـجرة، وفي كـل يـوم يقفـزون فـوق المكـان الـذي خُبئت فيـه البـذرة. البـذرة تتحـول إلى غرسـة وفوقهـا يثبـون أبـداً. لا يتململـون أو يتضجرون، ولا يعتبرون هذا مضيعة للوقت. شيئاً فشيئاً تكـبر الشـجرة ـ وتعلـو باسـتمرار وثبـة المحـاربين. وهكـذا يسـتعدون للعقبـات بصـبر وتضـحية، لقد ألفـوا التصـدي للتحـدي. وهـم يراقبوننا منذ شهور."

قاطع إيليا الحاكم:

ـ"من استفاد من هذه الحرب؟"

ـ الكاهن. أدركت هذا في أثناء محاكمة الأسير الآشوري.

ـ كيف؟

ـ لا أعرف. إنما كان خليقاً بإقناع القائد والشعب. الآن المدينة كلها معه، ولا أرى سوى مخرج واحد من صعوبة الوضع الذي نحن فيه.

ارتاح برهة غير قصيرة وحدق إلى الإسرائيلي:

ـ"أنت"

راح الحاكم يمشي طولاً وعرضاً، يجمجم ويبدي غيظه.

"التجـار أيضـاً يرغبـون في السـلم، إنمـا لا رأي لهـم. فضـلاً عـن أنهـم أصـحاب ثـروة تمكـنهم مـن الإقامـة في بلـدة أخـرى أو ينتظرون قدوم المنتصرين إليهم لابتياع منتوجاتهم. فقد الباقون الرشد وسواء السبيل وألحوا على منازلـة عـدو يفـوقهم كـثيراً. والشـيء الوحيـد الـذي قـد يقـنعهم أن يبـدلوا رأيهـم، المعجـزة فقط".

توتر إيليا

ـ"المعجزة؟"

ـ لقـد أقمـت الفتـى الـذي غيّبـه المـوت. آزرت الشـعب علـى شـق دربه، ورغم أنك غريب، أحبك الناس كثيراً.

قال إيليا:

ـ كان الموقف هكذا حتى الصباح. لكنـه الآن تغير: ففـي سـياق الكلام كما قدمته، من يدافع عن السلم سيعتبر خائناً.

ـ هـذا لا يعـني الـدفاع أيـاً كـان الحـال. أود أن تجـترح معجـزة كمعجـزة الفتـى. آنئـذ، سـتقول للشـعب أن السـلم هـو المخـرج الوحيد وسيصغي لك. لقد أفل نجم الكاهن وأدبرت سلطته.

خيّم السكون برهة. ثم أردف الحاكم:

ـ"أنا جاهز لعقد اتفاق: إن فعلت ما أطلب منك، سـيفرض ديـن التوحيد على أكبر. سترضي من يعينـك، وأقـدر أنـا أن أنـاقش شروط السلم".

صعد إيليا إلى الدور الأول، حيث غرفته. كان آنئذ أمام فرصة لم تقدم لأي نبي قبل الآن: هداية بلدة فينيقية. كان هذا هو السبيل الأجدى لترى جزابيل أن ما فعلته في بلدها له ضريبة يجب أداؤها.

لقد أثاره اقتراح الحاكم. فكر بإيقاظ المرأة، النائمة تحت، لكنه عدل؛ كانت تحلم بقيلولة الظهيرة التي قضياها سوية.

استدعى ملاكه. ولبى الملاك النداء.

قال إيليا:

ـ لقد سمعت اقتراح الحاكم. إنها لسانحة فريدة.

ـ ليس ثمة سانحة فريدة، أجاب الملاك. السيد يقدم للناس مناسبات عدة. حسناً، تذكر ما أعلن: لن تعطى أي معجزة حتى تعود إلى ديارك.

خفض إيليا الرأس. في تلك اللحظة، ظهر ملاك السيد وأسكت ملاكه الحارس. وصرح:

ـ هي ذي أعجوبتك القادمة.

ستجمع كل الشعب أمام الجبل. من جهة، ستأمر بإقامة معبدللإله بعل ويُذبح العجل، ضحية. من طرف آخر، ستشيد معبداً للسيد إلهك، ويضحى له بالعجل أيضاً.

وستقول لعبدة بعل: "استدعوا إلهكم والتمسوه وأنا أدعو اسم السيد".

دعهم يفعلون أولاً؛ يدعون، يصلون ويهتفون، يسألون بعل أن ينزل ليستلم ما أعد له.

"سيهتفون بصوت مسموع وسيقطعون من أجسادهم بالخناجر وسيصلّون لكي يتقبل الإله العجل، لكن شيئاً لا يتم."

"حين يتعبون، تملأ أنت أربع جرار ماء وتصبها على عجلك. تفعل هذا مرتين. بل ثلاث مرات. عندئذ تتضرع أنت لرب إبراهيم و اسحاق وإسرائيل أن يبدي سلطته.

في هذه اللحظة، يري السيد نار السماء ويلتهم ضحيتك."

سجد إيليا على ركبتيه وابتهل.

"على ذلك، تابع الملاك، لن تظهر هذه المعجزة في حياتك سوى مرة واحدة. اختر إن شئت أن تتحقق هنا، لمنع نشوب معمعة، أم أنك تفضل أن تكون في بلدك ليسلم ذووك من تهديد جزابيل."

واختفى ملاك السيد.استيقظت المرأة باكراً ورأت إيليا قاعداً في العتبة، كانت عيناه محصورتين كمن لم ينم.ودّت أن تسأله عما حدث في الليل الفائت، لكنها ارتابت بجوابه.ربما نجم أرقه من الحديث الذي جرى مع الحاكم، ومن التهديد بالحرب؛ إنما ربما كان ثمة سبب آخر، الرقيم الفخاري الذي قدم له. آنئذ، إن هي أثارت الإشكال، لتعرضت لسماع أن حب امرأة غير وارد في خطط الرب.

"تهاوى كل شيءٍ"، كان هذا هو تعقيبه فقط.

واستيقظ ابنها بدوره. وجلس الثلاثة على المائدة وطعموا.

"وددت أن أبقى معكِ البارحة" قال إيليا. "لكن الحاكم كان بحاجتي".

ـ لا تلبِّ طلبه.

قالت هذا، وشعرت بأن قلبها هدأ. "أسرته تحكم منذ أجيال، وهو يجيد التصرف عند الحرج".

ـ أنا حدثت الملاك أيضاً. وطلب مني قراراً صعباً جداً.

ـ ليس لك أن تقلق بسبب الملائكة. يفضل أن نصدق أن الآلهة تتغير مع الزمن. كان جدودي يقدسون آلهة مصر الذين كانوا بشكل حيوانات. ذهب هؤلاء الآلهة، وحتى وصولك، تعلمت أن أضحي لعشتار و بعل وكل سكان الجبل الخامس. الآن عرفت السيد، لكنه ربما غادرنا يوماً هو أيضاً، وربما كان الآلهة القادمون أقل تطلباً.

طلب الطفل ماء. لكن لا ماء هنا

قال إيليا:

"أنا ذاهب لأجلب ماء"

ـ سآتي معك، اقترح الفتى.



اتجهوا إلى البئر. في الطريق مروا حيث كان القائد يدرب جنوده باكراً.

"هلما نلقي نظرة عابرة، قال الفتى. سأكون جندياً يوم يسمح عمري".

لم يعقب إيليا.

-"من منّا أجدر بحمل السيف؟ "سأل أحد المحاربين قائده.

- "اذهب إلى حيث رجم الجاسوس البارحة" قال القائد. "التقط حجراً والعنه".

- لمَ هذا؟ الحجر لن يجيبني.

- إذن حطمه بالسيف.

- سيتحطم السيف، رد الجندي. وليست هذه هي قضيتي؛ أود أن أعرف من الأفضل منا بحمل السيف.

- الأجدر هو من يشبه حجراً، أجاب القائد. من دون إخراج النسل من غمده، ينجح في إثبات أن أحداً لا يقدر على قهره.

الحق مع الحاكم: والقائد حكيم. إنما الحكمة الأعظم قد تحتجب خلف ألق التفاخر والأباطيل.



تابعوا طريقهم. سأل الفتى لماذا يركز الجنود تدريباتهم.

"ليس الجنود فقط، بل أمك أيضاً، وأنا، وأولئك الذين يطيعون قلبهم. الكل، في الحياة، يتطلب تدريباً".

- حتى ليصير رسولاً؟

- "حتى ليدرك شأن الملائكة. نحن نلح على القول لهم: نحن لا نصغي إلى ما يقولون. ليس سهلاً الإصغاء: في صلواتنا نسع أبداً إلى شرح أين خدعنا وما نريد أن نحقق. لكن السيد يعرف هذا قبلنا، وأحياناً يطلب منا السماع فقط ما يقول الكون. وادخار الصبر."

حدق فيه الفتى، فجأة. هو ليس مضطر لأن يفهم شيئاً، ومع ذلك أظهر إيليا الحاجة لمتابعة النقاش. ربما - عندما يكبر - تساعدهم هذه الموضوعات في موقف معقد.

"كل معارك الحياة تعلمنا شيئاً ما. حتى الأشياء التي فقدناها. لما تكبر، ستكتشف أنك دعمت أكاذيب وترهات، أنك كذبت على نفسك، أو تألمت لحماقات. سواء إن كنت محارباً مقداماً، أو عملت أي عمل آخر، لا تسمح لأخطائك أن تتكرر."

عزم أن يسكت؛ يافع بهذا العمر لا يعي ما يقوله له. كانوا يسيرون الهوينة وكان إيليا يتملى شوارع المدينة التي طاف فيها يوماً، والتي تكاد الآن تختفي. الأمر يتعلق بالقرار الذي يتخذ.

كانت مدينة أكبر أكثر هدوءاً من المألوف. في الميدان العام، الناس يتسامرون بصوت خفيض ـ كأنهم يرتابون في أن يحمل الهواء ما يناقشون إلى ثكنة الآشوريين.

كان الكهول يؤكدون أن الوضع ساكن، وتهمز الشباب احتمالية الصراع، وكان التجار والصناعيون يخططون للذهاب إلى صور وصيدا بانتظار هدوء الأمور.

بالنسبة لهم كان السفر سهلاً، فالتجار قادرون على حمل أرزاقهم إلى حيث يشاؤون من العالم. ويقدر الصناعيون على العمل حتى في صقع لا يفهمون لغته. أما أنا، لا مفر لي من إذن السيد.



وصلوا إلى البئر وملأوا جرتين. عادةً، كان المكان يغص بالناس؛ تتجمع النسوة للغسل، لصبغ النسيج والتنديد بكل ما حدث في البلدة. قرب الآبار تفشى كل الأسرار؛ والأنباء الخاصة بالتجارة، الخيانات الأسرية، مشاكل الجوار، حياة الحاكم البيتية، كل الموضوعات ـ الجادة والسطحية ـ كلها طرقت، بحثت، نقدت أو أطريت. حتى في أثناء تضخم قوى العدو، ظلت جزابيل ـ الأميرة التي قهرت ملك إسرائيل ـ

الموضوع المفضل. ثنت النساء على جرأتها ، إقدامها ، واثقين إن أصاب البلدة مكروه، تعود إلى بلدها وتثأر.

إنما في ذلك الصباح، كانت المحلة خاوية خالية. بعض النساء قررن الذهاب إلى الحقول لالتقاط ما أمكن من الحبوب لأن الآشوريين سيغلقون أبواب البلدة قريباً. شرع بعضهن بالذهاب إلى الجبل الخامس من أجل التضحية للآلهة ـ درءاً لموت أبنائهن في الحرب.

"قال الكاهن إننا نستطيع أن نقاوم عدة أشهر" هذا ما نقلته إحداهن لإيليا.

"يكفي التحلي بالشجاعة المطلوبة من أجل الذود عن شرف أكبر، وستآزرنا الآلهة."

كان الولد اليافع خائفاً ، فسأل:

ـ"هجوم الخصم داهم؟"

لم يرد إيليا؛ هذا يتعلق بالخيار الذي اقترحه الملاك في الليل الفائت. "أنا فزعان، ألح الفتى".

ـ هذا يعني أنك تحب الحياة. فمن الطبيعي أن تسري الرهبة إليك سريعاً.



عاد إيليا والغلام إلى البيت قبل نهاية الصبيحة. كانت المرأة قد صفت حولها عدة أوعية، تحوي حبراً من مختلف الألوان.

"يجب أن أعمل" قالت وهي تنظر إلى الرسائل والجمل غير المنتهية" بسبب الجفاف، تكدس الغبار في البلدة. الملاقط وسخة جداً، والحبر غير نقي، وكل شيء صعب."

بقي إيليا ساكتاً: لم يشأ أن يقاسمها همومها. قعد في إحدى زوايا الحجرة وغرق في أفكاره. خرج الولد يلعب مع أقرانه.

"إنه بحاجة للهدوء"، قالت المرأة، وانكبت على عملها.

قضت الصبحية في إنجاز عدة كلمات كان يمكن كتابتها في نصف هذا الوقت، شعرت بالأسف وتأنيب الذات لأنها لم تفعل ما انتظر منها؛ وفي نهاية المطاف، لأول مرة في حياتها، حظيت بإنجاز حاجات أسرتها.

عادت إلى العمل، استخدمت أوراق البردي، المادة التي جلبها تاجر قادم من مصر ـ وطلب منها كتابة بعض الرسائل التجارية لتحمل إلى دمشق. لم يكن الورق جيد النوع، راح الحبر يرشح باستمرار. "رغم كل هذه العقبات، هذا أفضل من الرسم والنقش على الآجر".

كانت البلدان المجاورة اعتادت أن تبعث رسائلها على شطائر من القرميد أو الرّق. وربما كانت مصر بلداً مختلفاً وكذلك كتابته، لكنهم على الأقل اكتشفوا وسيلة عملية وسهلة

لتسجيل الشؤون التجارية والتاريخ؛ كانت النباتات التي تنمو على نهر النيل يقطع ساقها إلى قياسات متباينة، وحسب استطالة بسيطة، تلصق هذه الشرائح فوق بعضها البعض لتشكيل ورقة صفراء. كانت أكبر مضطرة لاستيراد أوراق البردي لأنها لا تنمو في واديها. حتى ولو كلفت غالياً، كان التجار يفضلونها لأنهم يقدرون أن ينقلوا الأوراق المكتوبة في حقيبتهم ـ وهذا مستحيل مع الشرائح القرميدية والرِّق.

"لقد صار الأمر سهلاً" قالت. كانت الصعوبة في أخذ أذن من الحكومة لإرسال أبجدية بيبلوس على أوراق البردي. ولقد سُنّ قانون يُخضع النصوص المكتوبة لمراقبة مجلس أكبر.

أتمت عملها، قدمته لإيليا، الذي استغرق كل وقته وهو يراقبها تعمل، من دون أقل تعقيب.

"ما رأيك بالمحصلة؟"سألت

بدأ يخرج من نوم استحوازي.

"نعم، هذا جميل "، من دون أن يعير اهتماماً لما ستقول.

كان عليه أن يحدث السيد. ولم تشأ أن تقاطعه. خرجت تبحث عن الكاهن.



لدى عودتهما، كان إيليا ما يزال قاعداً حيثما كان. حدق كل من الرجلين إلى الآخر. وظل الاثنان صامتين برهة طويلة. كان الكاهن هو الذي كسر الصمت. "أنت نبي، وأنت تكلم الملائكة. وأنا أقوم فقط بترجمة الشرائع القديمة، أنفذ الطقوس، وأحاول حماية شعبي من الأخطاء التي يجترح. لذا أعرف أن هذه المعركة ليست بين الناس. إنها معمعة بين آلهة، وليس علي أن أوقفها".

ـ أنا أقدر إيمانك، حتى وإن كنت تقدس آلهة غير موجودة، رد إيليا. إن كان الموقف الراهن كما تؤكد، خليق بمعمعة سماوية، سيجعلني السيد أداة لتدمير بعل ورفاقه في الجبل الخامس. ويكون من الأفضل أن تأمر بذبحي.

ـ فكرت بهذا. لكنه ليس ضرورياً؛ في الوقت الملائم، ستؤيدني الآلهة.

لم يجب إيليا. استدار الكاهن وتناول ورقة البردي التي كتبت عليها المرأة نصاً.

"إن هذا عمل جيد"، عقب. بعد أن قرأ بعناية، سحب خاتمه من إصبعه، أغرقه في الحبر، ووضعه في الجهة اليسرى. من تضبط معه ورقة بردي من دون ختم الكاهن يدان بالموت.

ـ"لم تقوم أبداً بهذا العمل؟" سألت

ـ لأن ورقة البردي هذه تنشر أفكاراً، رد. وللأفكار سلطة ونفوذ.

ـ ليست أكثر من معاملات ومخالصات تجارية.

ـ لكن هذه قد تكون خطط معركة. أو هي تقرير حول ثروتنا، أو صلواتنا السرية. في أيامنا، بواسطة الرسائل وورق البردي، يمكن بسهولة سرقة إلهام أو وحي شعب. كان إخفاء رُقم الآجر أو شرائح الرق صعباً جداً؛ لكن ترتيب البردي وأبجدية بيبلوس قد يضع حداً لثقافة أي شعب ويدمر العالم.

دخلت امرأة

"أيها الكاهن! أيها الكاهن! تعال انظر ما يحدث!"

إيليا والأرملة تبعاه. لفيف من الناس يتدفقون من كل اتجاه؛ الغبار الذي يثار وراءهم يجعل الهواء غير صالح للتنفس. وجمهرة من الأطفال تتقدمهم، تضحك وتهرج وتثير الجلبة. الكبار يتقدمون بتؤدة وصمت.

لما وصلوا إلى باب البلدة الجنوبي، وجدوا شريحة من الناس تجمعت فيه. شق الكاهن مسلكاً، واستعلم عن دافع هذه الفوضى.حارس من أكبر يركع على ركبتيه، مبعداً ذراعيه، سمّرت يداه على لوح خشبي موضوع على كتفيه. كان ممزق الثياب وبقضيب من خشب فقأت عينه اليسرى.

على صدره، بعض الحروف الآشورية رسمت بنصل خنجر. كان الكاهن يعرف اللغة المصرية لكن اللغة الآشورية لم تكن نشرت بكفاية لتعلم وتعرف عن ظهر قلب؛ نادى تاجراً كان يشهد المشهد.

"لقد أعلنا الحرب، هذا ما كتب على صدر الرجل"، ترجم الرجل.

لم ينبس أحد ببنت شفة. كان إيليا يقدر أن يقرأ الضنك والأسى في العيون وعلى الوجوه.

"أعطني سيفك"، قال الكاهن لأحد الجنود.

أطاع الجندي. طلب الكاهن إخطار الحاكم والقائد بما يحدث. ثم، بحركة سريعة، غرز نصل السيف في قلب الحارس الساجد على ركبتيه.

صرخ الرجل وخرّ على الأرض، ميتاً، متحرراً من الألم والخجل لسماحه لهم باعتقاله.

"غداً سأصعد إلى الجبل الخامس لأقدم الأضاحي" قال للشعب المرعوب. "ومرة أخرى ستتذكرنا الآلهة."

قبل أن يغادر التفت نحو إيليا:

"رأيت بأم عينيك: السماوات تستمر في الوقوف إلى جانبنا ومساعدتنا".

ـ سؤال فقط، قال إيليا. لماذا تريد أن ترى شعبك يضحي؟

ـ"لأن علينا أن نمر من هنا لقتل فكرة."

لما سمعه يحدث المرأة في ذاك الصباح، فهم إيليا الفكرة المقصودة: الأبجدية.

"فات الأوان جداً. لقد نشرها الناس، ولن يكون للآشوريين أن يحتلوا الأرض كلها".

ــ من قال لك هذا؟ في آخر المطاف، تكون آلهة الجبل الخامس إلى جانب جيشها.



خلال ساعتين، طاف في الوادي، كما فعل في القيلولة الفائتة. كان يعرف أن السلام مستمر في الأقل أمسية وليلة: لا أحد يشن الحرب في الليل، لأن المحاربين لا يقدرون أن يميزوا العدو. تلك الليلة تركها السيد سانحة لتغيير قدر المدينة التي استقبلته.

قال لملاكه"سليمان، وداود، وموسى، وإسحاق، كانوا رجالاً موثوقين لدى السيد، أما أنا، لست سوى خادم مطرح شك وريبة. فقد أعطاني السيد الخيار أن أكون من مريديه".

ــ إن تاريخ جنودنا يزخر بوضوح بالرجال الذين كانوا الشخص الملائم في المكان الملائم، أردف الملاك. ألا تقنع أن السيد لا يطلب من أحد إلاّ ما هو في حقل إمكاناته.

ـ إذن كان مخدوعاً معي.

ـ إن للآلام نهاية. فالعالم دارُ انتصارات ومآسي.

ـ لن أنسى هذا ، قال إيليا. لكن المآسي عندما تنسحب تترك شارات آبدة ، وتترك الانتصارات ذكريات سيئة.

لم يجب الملاك.

"لِمَ، خلال كل الوقت الذي قضيته في أكبر، عجزت عن إيجاد مجالات أناضل فيها لصالح السلم؟ ما دور نبي فرد منعزل و أعزل؟"

ـ ما دور أو أهمية الشمس التي تتابع مدارها في السماء؟ ما أهمية الجبل الذي يقوم في وسط وادٍ؟ ما دور بئر لا يروي أحداً؟ إنها على هذا هي التي ترشد إلى الطريق الذي تتبعه القافلة حتماً.

ـ خفق قلبي حزناً ، قال إيليا وسجد ومد ذراعيه نحو السماء. أطلب فقط أن أموت هنا من دون أن ألطخ يداي بدم شعبي ، أو شعب آخر. انظر وراءك: ماذا ترى؟

ـ أنت تعلم جيداً أني ضرير ، قال الملاك. لكن نظري ما زال يحفظ نور انتصار السيد. ولا أقدر أن أرى شيئاً آخر. كل ما أدركتُ، هو ما قصه علي قلبك. كل ما استطعت أن أستشف، هي ذبذبات الأخطار التي تهدد. و لا أقدر أن أعرف ما وراءك.

ـ إيه حسناً، سأقوله لك: ثمة مدينة أكبر. في هذه الساعة، شمس بعد الظهر تنير المقطع الجانبي، وهي جميلة. لقد ألفت هذه الشوارع وهذه الأسوار، وشعبها المضياف الأريحي. حتى إن كان سكان المدينة ما زالوا أسرى التجارة والتطير، ما زال قلبهم نقياً مثل قلب أي أمة في العالم. لقد تعلمت والشكر لهم كثيراً من أشياء كنت أجهلها؛ بالمقابل، أصغيت إلى شكواهم، وبإلهام الله، نجحت بحل نزاعاتهم الداخلية. تعرضت كثيراً للخطر، وكثيراً ما آزرني أحدهم. لِمَ يجب أن أختار بين إنقاذ هذه المدينة أو افتداء شعبي؟

ــ لأن الخيار مفروض على الناس، أجاب الملاك. في هذا تكمن قوته: سلطة ونفوذ قراراته.

ـ هذا خيار صعب: يتطلب قبول موت شعب لإنقاذ آخر.

ــ والأصعب تحديد طريقك. من لا يختار يموت في عيني السيد، حتى لو استمر يمشي في الشوارع ويتنسم النسيم. بالإضافة إلى ذلك، لا أحد يموت. الأزل والخلود يستقبل كل النفوس وكل نفس تلاحق عملها ومهمتها. ثمة حكمة لكل الموجودات تحت الشمس."

رفع إيليا مجدداً ذراعيه نحو السماء:

"ابتعد شعبي عن السيد بسبب جمال امرأة. وفينيقيا ربما دُمرت لأن كاهناً فكر إن الكتابة تشكل تهديداً للآلهة.

لماذا يفضل من خلق العالم استخدام التراجيديا لكتابة كتاب القدر؟"

دوى صراخ إيليا في الوادي وعاد الصدى إلى أذنيه.

"إنك لا تعرف ماذا تقول، أردف الملاك. ليس ثمة تراجيديا، ثمة فقط المحتم. لكل شيء علة وجود: فعليك أنت أن تميز العابر من النهائي".

- ما العابر؟ سأل إيليا.

- الحتمي.

- وما النهائي؟

- دروس الحتمي."

بعد هذا الكلام، ابتعد الملاك.

في تلك الأمسية، في أثناء العشاء، خاطب إيليا المرأة وولدها:

- استعدا. ربما رحلنا في كل لحظة.

- منذ يومين لم يغمض لك جفن، أردفت المرأة. أتى رسول من لدن الحاكم بعد ظهر اليوم؛ طلب أن تذهب إلى القصر. قلتُ إنك ذهبت إلى الوادي وما زلتَ هناك.

- "خيراً فعلت"، أردف. ثم توجه فوراً إلى غرفته وغرق في نوم عميق.

استيقظ في الغد باكراً على صوت أداة موسيقية. حينما نزل ليعرف ما جرى، كان الغلام في عتبة البيت.

"أنظر! قال، العينان ترسلان شرراً. إنها الحرب!"

فوج من الجند، في الميدان بثوبه الرسمي وسلاحه، يتجه نحو الباب الجنوبي لأكبر. لفيف من الموسيقيين يتبعون، يعزفون على وقع الطبول.

"البارحة خفت" قال إيليا للفتى.

- "أنا لم أكن أعرف أنه لدينا كل هؤلاء الجنود. ومحاربونا أفضل!"

ترك إيليا الولد وخرج إلى الشارع؛ كان عليه بأي ثمن أن يرى الحاكم.

وسكان المدينة، الذين استيقظوا على أناشيد الحرب، كانوا كما لو أنهم في نوم مغناطيسي؛ لأول مرة في حياتهم، كانوا يشهدون عبور فوج منتظم، بالثوب الموحد العسكري، السهام والدروع تعكس أشعة الشمس. القائد نجح بإبراز القوة؛ هيأ جيشه من دون علم الجميع، والآن - مع شكوك إيليا - قدر أن يبث الثقة بالنصر على الآشوريين.

شق مسلكاً عبر الأرتال ووصل حتى مقدمة الفوج. هنا، على صهوات الجياد، بدأ القائد والحاكم السير.

"لقد أقمنا اتفاقاً"، قال إيليا وهو يسير مسرعاً قرب الحاكم. "أقدر أن أجترح معجزة!"

لم يجبه الحاكم. تخطت الحامية أسوار المدينة وخرجت باتجاه الوادي

"أنت تعرف أن هذا الجيش وهم"، ألحَّ. "الآشوريون لديهم خمسة أضعاف هذا الحشد، وهم خبراء ممارسون في خوض المعارك! لا تدع أكبر للدمار!"

ـ ماذا تنتظر مني؟ سأل الحاكم، من دون إيقاف مطيته. البارحة مساء أرسلت من يجلبك إلي لكي نتحدث ونتصرف، وقيل لي إنك لم تكن في المدينة. ماذا عندي أن أفعل أكثر؟

ـ مجابهة الآشوريين في ساح مفتوح انتحار! أنت تعرف هذا جيداً!

كان القائد يصغي إلى الحديث من دون أي تعقيب. لقد ناقش إستراتيجيته مع الحاكم؛ ولقد فوجئ النبي الإسرائيلي أيضاً. وكان إيليا يركض إلى جانب الخيول، من دون أن يعرف ما يفعل. ابتعد طابور الجند عن المدينة واتجه نحو وسط الوادي.

"ساعدني، يا سيد، أردف. كما أخفيت الشمس لمؤازرة يوسف في المعركة، أوقف الزمن وأعني على إقناع الحاكم أنه مخطئ."

ما أن وافته هذه الفكرة حتى سمع هتاف القائد :"مكانك! قف "

"ربما كان هذا الهتاف إمارة محددة، قال إيليا. يجب أن أفيد منه."

شكل الجنود رتلين، أشبه بجدارين من الرجال، استندت الدروع بثبات على الأرض ووجهت رؤوس الأسلحة إلى الأمام.

"تظن أنك ترى محاربي أكبر" سأل الحاكم إيليا.

ـ "أرى شباناً يصهجون قبل الموت".

ـ "لكن أعلم أن جيشنا هنا هو فوجٌ واحدٌ فقط. أغلب رجالنا بقي في المدينة، في أعلى الأسوار. ووزعنا الاحتياط على مختلف البيوت لتجنيب المؤن الاحتراق بالأسهم المشتعلة. حسب حسابات القائد، يمكننا أن نصمد شهرين والمدينة محاصرة. بينما كان الآشوريون يتأهبون، كنا نقوم بالعمل نفسه".

ـ لم يطلعني أحد على كل هذا، قال إيليا.

ـ تذكر: حتى إن أنت ساعدت شعب أكبر، تبقى غريباً، ولأي مقاتل أن يعتبرك جاسوساً.

ـ أما أنت، ألا ترغب في السلم!

ـ يظل السلم ممكناً، حتى بعد بدء المعركة. فقط، نتفاوض نداً إلى ند.

قص الحاكم أنه بعث مستطلعين إلى صور وصيدا لتقويم جهوزية الوضع. كلف هذا طلب المساعدة: يمكن الظن بعدم القدرة على التحكم بالموقف. لكنه توصل إلى خلاصة تقول إن هذا هو الحل الوحيد.

لقد أعد القائد خطة عبقرية؛ ما أن تبدأ المعركة، حتى يعود إلى المدينة لتنظيم المقاومة. من جانبها، الوحدات الموجودة في ساح القتال تكلف بصرع ما أمكن من الأعداء، ثم تنسحب إلى الجبل. العسكر يعرفون هذا الوادي خيراً من الجميع ويقدرون أن يهاجموا الآشوريين بمناوشات بسيطة، لتخفيف شدة الحصار.

تصل المساعدات على عجل، ويسحق الجيش الآشوري.

"نستطيع أن نقاوم ستين يوماً، بل هذا ليس ضرورياً". قال الحاكم لإيليا.

- لكن هذا سيكلف الكثير من القتلى.

- نحن جميعاً في حضرة الموت. ولا أحد يخاف، حتى أنا.

اندهش الحاكم من الشجاعة التي أبداها هو. لأنه لم يسهر يوماً على الإعداد للمعركة، ومع دنو الأعمال القتالية، كان يضع خططاً لتجنيب المدينة الأخطار. وفي ذلك الصباح، هيأ مع أخلص رجاله خير طريقة للصراع في حال التراجع. فهو لا يستطيع الذهاب إلى صور وصيدا، لأنه سيُعتبر خائناً، لكن

جزابيل ستستقبله لأنها بحاجة لرجال أكفاء مقدامين إلى جانبها.

على هذا، لدى ولوج ساحات المعمعة، كان يقرأ في عيون جنده فرحاً غامراً.

ـ كأنهم كرسوا حياتهم كلها لهذا الهدف وقد آنت الساعة.

"يبقى الخوف حتى حلول ما لا مهرب منه" قال لإيليا. "مع ذلك، ليس لنا أن نضيع بداهتنا وطاقتنا بسبب الخوف."

كان إيليا مضطرباً. كان يحس بالشيء ذاته، رغم خجله من الاعتراف به؛ تذكر تحريض الولد لدى مرور فوج الجنود.

"اذهب، أمر الحاكم. أنت غريب، أعزل، ولست راغباً في القتال من أجل فكرة لا تؤمن بها."

ظل إيليا في مكانه.

"هم في طريقهم إلينا" ألح القائد. "وأنت لن ترجع، إنما نحن على أهبة الاستعداد".

لكن إيليا لم يحرك ساكناً.

نظروا إلى الأفق؛ لا أثر للغبار، الجيش الآشوري لم يتحرك.

جنود الصف الأول أعدوا رماحهم؛ شد النبّالون أوتار أقواسهم ليقذفوا سهامهم لدى سماع أمر القائد. والرجال الذين كانوا يتدربون كانوا يشقون الهواء بسيوفهم، ليحافظوا على دفء عضلاتهم.

"الوضع جاهز، كرر القائد. سيهجمون".

عبر إيليا بصوته عن ارتياحه. كان نافد الصبر لبدء الصراع؛ كان يتمنى الجهاد وإظهار كفاءته. بالتأكيد، كان يتصور المحاربين الآشوريين، طعن السيوف، الهياج والصراخ والبلبلة، كان يأمل أن يتخذه الكهنة الفينيقيون مثالاً لفعاليته وشجاعته.

كسر الحاكم سلسلة أفكاره:

"لم يبدوا حراكاً."

تذكر إيليا ما طلب من السيد: أن تقف الشمس في السماء، كما فعل من أجل يوسف.

حاول أن يتحدث مع الملاك، لكنه لم يسمع صوته. رويداً رويداً، خفض القناصون أسلحتهم، وأعاد السيافون سيوفهم إلى القراب.

هلك بعض المحاربين بفعل الحر؛ مع ذلك، ظلت الوحدة المقابلة مستعدة حتى ما بعد الظهر.

لما غابت الشمس، رجع المحاربون إلى أكبر. كانوا في أسوأ حال، كمن لا يقدر أن يعيش يوماً آخر.

ظل إيليا وحده في الوادي. مشى بعض الوقت دونما هدف؛ بغتة رأى ضوءاً. مثل أمامه ملاك السيد.

"سمع الله صلواتك، ولمس عذاب روحك."

التفت إيليا نحو السماء وشكر هذه البركة.

السيد نبع المجد والنصر والنفوذ. كبح جماح الجيش الآشوري.

ـ لا ، رد الملاك. أنت قلت أن الخيار خياره. فوقف إلى جانبك وتبنى خيارك.

"هلموا نرحل، قال للمرأة ولولدها."لا أريد أن أغادر ، قال الابن. أنا فخور بجنود أكبر". أكرهت الأم على أن تلملم شؤونها وأغراضها :"أحمل فقط ما تستطيع أن تحمل." نسيتي ، أمي ، إنّا فقراء وليس عندي شيء هام."صعد إيليا إلى الغرفة. ألقى نظرة ، بدت كأنها أول وآخر نظرة إلى هذه الغرفة؛ ثم نزل وتطلع إلى الأرملة التي كانت ترتب المحابر."شكراً لك لمرافقتي" قالت. "يوم تزوجت،كنت في الخامسة عشرة أو أكاد ، ولا ألمّ بشيء من شؤون الحياة وشجونها. عائلتانا رتبتا الأمر ، نشأت وكبرت منذ الطفولة حتى الآن من أجل هذه اللحظة وتأهبت جيداً لمؤازرة زوجي في كل الأحيان والظروف".

ـ أحببتيه؟

ـ أعددت قلبي من أجل هذا. لا خيار لي، أقنعت نفسي أن هذا الدرب هو الأفضل. ولما فقدت زوجي، ألفت أيامي ولياليَ، وطلبت من آلهة الجبل الخامس ـ آنئذ كنت ما أزال مؤمنة بها ـ أن تأخذني عندما يصير ولدي قادراً على الحياة وحده.

"منذ ما رأيت النور. قلت لك، وأكرر: بدءاً بهذا اليوم، اكتشفت روعة هذا الوادي، هيئة الجبال المعتمة تنعكس في السماء، والقمر الذي يبدل شكله لكي ينمو القمح. غالباً، في الليل، لما تنامين، أتنزه أنا في أكبر، أصغي إلى بكاء الولدان، إلى أغاني الناس الذين شربوا بعد العمل، وإلى خطى الحراس فوق الأسوار. كم مرة رأيت هذا المنظر الريفي من دون أن ألحظ جماله؟ كم مرة تطلعت إلى السماء دون أن ألحظ عمقها؟ كم مرة سمعت جلبة أكبر حولي دون أن أرى أنها جزء من حياتي؟ لمست رغبة رحيبة بالحياة.

نصحتني أن أدرس حروف بيبلوس (جبيل)، ونفذت رغبتك. فكرت فقط أن أفرحك لكني كنت أهوى وأسرّ بما أفعل واكتشفت: أن معنى الحياة كان في أن أعطيه له."

داعب إيليا شعرها. لأول مرة

"لمَ لم تكن دوماً رحيماً هكذا؟" سألت.

"لأني كنت أخاف. أما الآن، بانتظار المعركة، سمعت كلام الحاكم وفكرت بك، استمر الفزع حتى بدء المحتم؛ عندئذ، فقد الرعب معناه. ولم يبق لنا سوى الأمل بأن نأخذ قراراً صائباً".

ـ "أنا مستعدة" قالت.

ـ "سنرجع إلى إسرائيل. السيد دلني إلى ما يجب أن أفعل. ستكون جزابيل فقدت سلطتها."

لم تنبس بكلمة. كما كل نساء فينيقيا. كانت فخورة بأميرتها. لما حان وقت القرار، حاولت إقناعه تبديل رأيه.

ـ"أمامنا رحلة طويلة وليس لنا مستراح ريثما أفعل ما طلب السيد مني، قال إيليا، كمن يتشوف رأيها. مع ذلك، سيكون حبك دعماً لي، ولما أنهك من القتال باسمه، سأستريح بين ذراعيكِ."

دنا الصغير، وقد علق إلى كتفه حقيبة طفل، حضنه إيليا، قال للأم:

ـ"الساعة دقت، عندما ستتخطين شوارع أكبر، احفظي ذكرى كل بيت، وكل ضجة. لأنك لن تريها ثانية".

ـ "رأيت النور في أكبر، قالت. والمدينة باقية أبداً في حناياي."

سمع الطفل الحديث، ووعد ألاّ ينسى إلى الأبد كلمات أمه.
إن استطاع العودة ثانية، سيرى المدينة كأنه يرى وجهها بل محياها.
في الليل وصل الكاهن كعب الجبل الخامس. عصى في يده اليمنى وكيس في يده الشمال.
أخرج من الكيس الزيت المقدس، ومسح الجبهة والراحتين.
ثم، رسم بالعصى على الرمل العجل والفهد، رمزي إله العاصفة والإلهة العظمى. رتّل الصلوات الطقسية؛ أخيراً رفع ذراعيه إلى السماء لكي يتلقى البركة الإلهية.
كان الآلهة ساكتين. فقد أدلوا بكل ما عندهم والآن لم يطلبوا سوى إتمام الطقوس. توارى الآلهة في أربع أركان الكون - ما عدا إسرائيل، البلد المتخلف، المؤمن بالخرافات والتطير، وأن الناس ما زالوا قادرين على الاتصال مع خالقي الدنيا.
تذكر أن صور وصيدا، قبل جيلين، فاوضتا ملك القدس المدعو سليمان. كان قد بنى هيكلاً عظيماً ورغب في أن يزخرفه بأفضل ما يقدمه الناس، وأمر بشراء أرز فينيقيا، المدعوة لبنان. قدم ملك صور المواد اللازمة وحصل بالمقابل على عشرين مدينة في الجليل، لكن هذه المدن لم ترضه.

حينئذ، ساعده سليمان ببناء سفنه الأولى، ومنذئذ امتلكت فينيقيا أعظم أسطول تجاري في العالم.

في هذا العهد، كانت إسرائيل ما تزال أمة عظيمة ـ رغم تقديمها العبادة للإله الواحد، لم يعرف اسمه بعد فسمي "السيد". ونجحت أميرة من صيدا بإعادة سليمان إلى العرش، وبنى معبداً لآلهة الجبل الخامس. أصر الإسرائيليون على تأكيد أن "السيد" قد عاقب أحكم ملوكهم .

لكن جروبوام، الذي حكم بعده، تابع العبادة التي أهدى سليمان الناس إليها. أمر بإقامة عجلين من الذهب عبدهما شعب إسرائيل. ومذئذ دخل الأنبياء مسرح الحياة وبدأوا النضال دونما توقف ضد العاهل.

كانت جزابيل على حق: الأسلوب الوحيد لترسيخ الإيمان الشرعي حياً كان قتل الأنبياء. هذه المرأة الرقيقة، ربيبة حلم وأهوال الحرب، لُقنت أن ثمة حقبة من الزمن تفرض العنف باعتباره المخرج الوحيد. والدم الذي يلطخ الأيدي الآن تعفو عنه الآلهة التي عبدت.

"قريباً، أنا أيضاً سيوسخ الدم يديّ"، قال الكاهن في الجبل الصامت أمامه. كما أن الأنبياء هم لعنة إسرائيل، الكتابة هي كذلك لعنة فينيقيا. يمكن أن تسبب مثلها شراً لا مهرب

منه ويجب محاربتها ما أمكن ذلك. رب الزمان لا يمكن أن يتخلى عنا الآن."

كان مقلقاً ما حدث في الصباح؛ جيش العدو لم يهجم. في الماضي، حدث أن تخلى إله الزمان عن فينيقيا، سخط على سكانها. وبالتالي، انطفأت نار المصابيح، قطعان البقر والغنم عافت صغارها، القمح والشعير بقي أخضر. بعث الإله - النسر والعاصفة - للبحث عن إله الشمس وجلبه إنما عبثاً.

أخيراً، أرسلت كبيرة الآلهة النحلة، وجدت إله الشمس نائماً في غابة وقرصته. استيقظ، مرعوباً، وراح يعبث بكل ما حواليه. فتوجب التسلط عليه لإخراج الحقد الذي انتشر في حناياه، ثم عاد كل أمر طبيعياً.

لقد قرر أن ينسحب من جديد، لذا لم تنشب المعركة. تشبث الآشوريون بمدخل الوادي، واستمرت أكبر في الوجود.

"الجرأة هي الخوف الذي يصنع صلواته" قال" لذا أنا هنا؛ لأني لم أقدر أن أهدأ ساعة المعركة. التزمت أن أدل محاربي أكبر أن ثمة واجباً للدفاع عن أكبر ليس هو البئر، ليس هو السوق، وليس هو قصر الحاكم. سنجابه الجيش الآشوري لأن علينا أن نكون قدوة."إن انتصار الآشوريين سيضع حداً نهائياً لتهديد الأبجدية. سيفرض المنتصرون لغتهم وعاداتهم

وأعرافهم، واستمروا بعبادة الآلهة ذاتها فوق الجبل الخامس؛ كان هذا الأمر مهمّاً.

"فيما بعد، سيحمل بحارتنا إلى بلدان أخرى مآثر محاربينا وأمجادهم. سيذكر الكهنة أسماءهم حين أتى يوم حاولت فيه أكبر مقاومة الغزو الآشوري. سيرسم الرسامون الحروف المصرية على ورق البردي، وستموت كتابة بيبلوس (جبيل). ستبقى النصوص المقدسة قوة فقط في يد من خلقوا ليتعلموها. إذن، ستحاول أجيال المستقبل تقليد ما فعلناه وسنبني نحن بذلك عالماً أفضل".

"أما الآن، تابع، سنخسر هذه المعركة. سنقاتل بجرأة وتضحية، لكننا في وضع لا نحسد عليه؛ وسنموت ماجدين."

في هذه اللحظة استوحى الكاهن الليل ووعى أنه محق. سبق هذا السكون لحظة الصراع الحاسمة، لكن أبناء أكبر بدؤوها بشكل خاطئ. خفضوا سهامهم وراحوا يمجنون عوضاً عن تجهيز الحرس. لم يعيروا الطبيعة انتباههم: تسكن الحيوانات وتهدأ عند دنوّ الخطر.



"لتتم خطط الآلهة، و لا تنهار السماوات على الأرض، إننا فعلنا كل ما يجب و خضعنا للتقاليد"أضاف الكاهن.

سار إيليا ، المرأة والولد على الدرب الذي يفضي إلى إسرائيل؛ ما كان يعني حتمياً عبور المعسكر الآشوري، الواقع في الجنوب. القمر كان بدراً ما سهّل تقدمهم ، إنما في الوقت ذاته، نشر ظلالاً غريبة وأشكال شؤم على الصخور ودروب الوادي كثيرة الحجارة.

من عمق العتمة انبثق ملاك السيد. كان يشهر سيفاً بيده اليمنى.

-"إلى أين أنت ذاهب؟" سأل.

-"إلى إسرائيل" أجاب إيليا.

- "هل ناداك السيد؟".

-"اضطلعت سابقاً بالإعجاز الذي طلبهُ اللّه مني. والآن أعرف أين عليّ أن أنفذه".

-"هل دعاك السيد؟" أردف الملاك.

سكت إيليا.

- "إذن عد إلى حيث كنت، لأنك لم تتم بعدُ قدرك. السيد لم يدعُكَ بعد".

- "دعهم على الأقل يعبرون، ما عندهم شيء يفعلونه هنا" توسل إيليا.

لكن الملاك قد توارى. رمى إيليا حقيبته أرضاً. قعد في وسط الطريق وبكى بمرارة.

ـ"ماذا يحدث؟" سألت الأم وابنها، اللذان لم يريا شيئاً.
ـ سنعود، قال. هكذا أراد السيد.
لم يقدر أن ينام. قلق طيلة الليل وأحسّ حوله ضغط الهواء؛ ريح خبيثة تصفر في الشوارع، تبذر الخوف وعدم الثقة.
تمتم مصلياً: "في حب امرأة، اكتشفت حب كل المخلوقات. أنا بحاجة لها. أعرف أن السيد لن ينسى أني أحد أدواته، ربما الأضعف ممن اختار. أعنّي، يا سيد، لأني أود أن أرتاح وأهدأ في وسط المعارك."
تذكر تعقيب الحاكم على عدم جدوى الخوف. رغم هذا، لم يجد إلى الرقاد سبيلاً. "أنا بحاجة للنباهة والسكينة".
فكر بدعوة الملاك، ليبادله بعض السمر؛ لكنه فزع من سماع أشياء لا يرغب فيها فغير رأيه. ليرتاح ويكف عن التوتر، نزل إلى القاعة؛ لم تكن الحقائب التي أعدتها المرأة للهرب قد فكت.
فكر بالذهاب إليها. تذكر أن السيد قال لموسى قبل المعركة: "الرجل الذي يحب امرأة ولم يدخل عليها بعد، ليعد إليها، لكي، إن مات في الجهاد، لا يدخل عليها غيره."
لم يباتا وحدهما بعد. لكن الليل كان ثقيلاً والوقت غير ملائم.

قرر أن يُفرغ الحقائب ويرتب كل شيء في مكانه. اكتشف أنها لم تأخذ الثياب التي تملكها فحسب، بل الأدوات التي تفيدها في رسم أو نقش حروف بيبلوس.

تناول مسبراً، بلل لوح الآجر، وبدأ يحفر بعض الحروف؛ لقد تعلم الكتابة وهو يتأمل المرأة تعمل.

"كم هذا بسيط وعبقري!"قال، محاولاً الترويح عن نفسه. غالباً، لما كان يذهب إلى البئر سعياً وراء الماء، كان يصغي إلى تعليقات النساء: "لقد سرق اليونان أهم ابتكاراتنا".كان إيليا يعرف أن هذا ليس دقيقاً: النحت اللغوي الذي فعلوه، بإدخال الحروف الصوتية، حول الأبجدية إلى أداة تخول كل الأمم استخدامها. فضلاً عن هذا، أعطوا مجموعات الرق اسم بيبليا **biblia**، إكراماً وتخليداً للمدينة التي ولد الابتكار على أرضها.

دوّنت الكتب اليونانية على جلود الحيوانات. كان هذا حاملاً هشاً، سريع العطب، لحماية الكلمات والحفاظ عليها؛ قال إيليا بعد تأمل؛ وكانت الجلود أقل مقاومة من الغضار، وسهلت السرقة. أما ورق البردي، فيتلف بعد وقت قصير نسبياً من التداول،كما وتتلفه المياه. "الرق والبردي قابلان للتلف؛ فلويحات الآجر وحدها قادرة على الديمومة الطويلة "، قال مجدداً.

إن استمرت أكبر في الحياة سيوصي الحاكم أن يأمر بتدوين تاريخ بلاده وأن يصون الرقم الآجرية في قاعة خاصة، لكي ترجع إليها أجيال المستقبل. إن آل إلى الزوال الكهنة الفينيقيون - الذين يحفظون في الذاكرة تاريخ شعبهم - يوماً، لم تنسَ بعدها أعمال المحاربين البطولية وعبث الشعراء.

تسلّى هنيهة، راسماً ذات الحروف في ترتيب متباين ومشكلاً كلمات متمايزة. أعجب بالنتيجة. أراحته هذه المهمة فعاد إلى الرقاد.



بعد هنيهة، أيقظه دوي كبير؛ وارتمى باب غرفته في الأرض.

"ليس هذا حلماً. وليست هذه هي جيوش السيد في المعركة".

انبعثت ظلال من عدة اتجاهات، ناشرة صراخاً إبليسياً بلغة لا يفهمها "الآشوريون."

وسقطت أبواب أخرى، وانهارت جدران تحت وقع قذائف عاتية، واختلط زعيق الغزاة بنداءات طالبة المساعدة والإنقاذ صادرة من الساحة. حاول أن ينهض، لكن هزة ألقته أرضاً.

وضجيج أصم هز الطابق الأسفل.

"النار، قال إيليا. لقد أحرقوا البيت".

"هذا أنت! "استوضح أحدهم بلسان فينيقي. "أنت القائد! مختبئ مثل جبان في بيت امرأة."

تأمل إيليا وجه الشخص الذي تكلم؛ انتشر الحريق في الغرفة، وقدر أن يميز رجلاً ملتحياً، بزي قتالي. نعم، لقد وصل الآشوريون.

"هجمتم في الليل؟"سأل، مرتبكاً.

لكن الرجل لم يجب. رأى إيليا لمعان السيف خارج الغمد وطعنه محارب في يده اليمنى.

أغمض عينيه؛ تسلسلت حياته أمامه خلال لحظة. عاد يلهو في شوارع المدينة حيث ولد، زار القدس لأول مرة، تشمّم رائحة الخشب المقطوع في منشرة، بهرته مجدداً زرقة البحر ورحابته وثياب المدن المحاذية للشط. رأى وديان وجبال أرض الميعاد تهرب، تذكر أنه عرف جزابيل، ما تزال كفتاة صغيرة وتفتن كل الذين حواليها. شهد ثانية مذبحة الأنبياء وسمع صوت السيد يأمره بالذهاب إلى الصحراء. ورأى مجدداً عيني المرأة التي كانت تنتظره في مدخل ساربتا ـ التي يسميها أبناؤها أكبر ـ ووعى أنه أحبها من أول لحظة. وتصور أيضاً الجبل الخامس، ورجع طفلاً واستقبله الشعب كحكيم وعادل. تأمل السماء حيث تتحرك الكواكب بسرعة، أنبهر بالقمر الذي يبدي مراحله الأربع في وقت واحد، شعر بالبرد،

بـالحر، بـالخريف والربيـع، عـرف مـرة أخـرى المطـر ولمعـان الصاعقة. ارتـدت النجـوم ألـف شـكل وانسـابت ميـاه الجـداول للمـرة الثانيـة في نفـس المجـرى. وتخيـل يـوم قيـام أول خيمـة آشورية، والثانية، وغيرها أيضاً، وما تزال تتكاثر، الملائكة تـروح وتغـدو، و السـيف يلمـع علـى درب إسـرائيل، ليـالي السهاد، والرسوم على اللويحات، و...

عـاد، وفكـر فيمـا حـدث في الطـابق الأسـفل، يجـب بـأي ثمـن إنقاذ الأرملة وابنها.

قال: "إلى جهنم الجنود الخصوم. البيت يحترق! "

مـا كـان خائفـاً؛ كـان همـه الأول هـو الأرملـة وابنهـا. دفـع أحـدهم رأسـه إلى الأرض، وذاق طعـم الـتراب. حضـن الأرض وقـال كـم أحبهـا، لقـد فعلـت مـا اسـتطيع لمنـع هـذا. أراد التملص من مهاجميه، لكن أحدهم رفسه في صدره.

وقال: "يجب أن أهرب، لن يؤذوا امرأة عزلاء."

تغلغل إلى قلبه هـدوء عميق. ربمـا رأى السـيد أنـه لـيس الرجـل المناسـب واكتشـف نبيـاً آخـر لإنقـاذ إسـرائيل مـن الخطيئـة. أخيراً وفد الموت، كما تمنى، بالشهادة. ارتضى قدره وانتظر الضربة الشؤم.

انصرمت ثواني؛ تابع الجند الصراخ، الـدم يتـدفق مـن جرحـه، لكن الضربة القاضية لم تأت.

"أرجوك، اقتلني في الحال!"صرخ، مقتنعاً أن أحداً منهم على الأقل يتكلم لغته.

لم يبال أحد بكلامه. كانوا يتحدثون بحيوية، كما لو أن خطأ ارتكب. راح الجنود ينهالون عليه بالسياط، ولأول مرة، تحقق إيليا أن غريزة البقاء عادت إليه. فذعر.

"لا أقدر على قبول حياة أطول، قال في عبّه، يائساً. لأني لن أخرج حياً من هذه الورطة".

لكن شيئاً لم يحدث، بدا العالم يتأبد في هذا الخليط من الزعيق، الضجيج والغبار. ربما تصرف السيد كما فعل مع عيسى، فقد أوقف الزمن والمعركة على أشدها.

آنئذ سمع صراخ المرأة من الأسفل. في جهد فوق ـ بشري، قدر أن يدفع حارساً وينهض، لكنه سرعان ما عضّ الأرض. ضربه جندي على رأسه وغيّبه عن الوعي.



بعد دقائق، عاد له وعيه. كان الآشوريون قد جروه إلى الشارع في غمرة الغيبوبة، رفع رأسه: كانت كل بيوت الحي تحترق.

"وراء قضبان السجن كانت تقبع امرأة بريئة عزلاء! أنقذوها!"

صراخ، ركض، بلبلة واضطراب من كل الجهات. حاول النهوض لكنهم رفسوه ثانية.

صلى "يا سيد، لك أن تفعل بي ما تريد، لأني كرست حياتي وموتي لمجدك. إنما أنقذ من استقبلتني!"

"تعال انظر، قال الضابط الآشوري الذي كان يعرف لغته إنك لتستحق هذا."

ومسك به حارسان ودفعاه إلى الباب. كان اللهب قد التهم البيت وانتشرت النيران. وفي قلب الصراخ والصياح من كل نحو: ولد يبكي، شيوخ يلتمسون الرحمة، نساء بخيبة أمل يبحثن عن أبنائهن. لكنه هو لم يسمع سوى طلب المساعدة من التي استقبلته.

"ماذا أرى؟ امرأة وابنها يستغيثان! لم فعلتم بهما هذا؟"

- حاولت أن تؤوي حاكم أكبر.

- لست حاكم أكبر! أنتم ترتكبون أفدح الأخطاء!

فدفعه الضابط الآشوري إلى العتبة. كان السقف ينهار تحت أجيج الحريق، وكادت المرأة تدفن بين الدمار والأنقاض. ما كان إيليا يرى سوى ذراعها يخفق يائساً. طلبت المؤازرة، التمست ألا تترك للنيران تلتهمها حية.

-"لماذا أُستعبد أنا وتفعلون بها هذا؟" التمس.

ـ "نحن لا نستعبدك، نحن نرغب في أن تذوق شر الآلام. مات قائدنا رجماً ومن دون مجد، أمام سور المدينة. أتى يسعى إلى الحياة فلاقى الموت. وأنت ستلقى ذات المصير".

جالد إيليا كثيراً بيأس من أجل حريته. اقتاده الحراس. جابوا به شوارع أكبر تحت قيظ لاهب ـ كان العرق يبلل الجند، وبدا البعض متأثرين بالمشهد المذهل. كان إيليا يقاوم ويلتمس السماوات بهتاف عميق، لكن الآشوريين، كما السيد، كانوا صمّاً بُكماً.

مشوا حتى مركز المدينة. كانت أغلب صروح المدينة تلتهب، ودمدمات الحريق تختلط بصراخ أبناء أكبر.

"آه، ما أحلى الموت."

كم مرة توارد إلى مخيلته هذا المنظر، منذ ما كان في الإسطبل!

كانت الأجداث تغطي الأرض، وكان أغلب محاربي أكبر بالثوب غير الموحد. ناس يركضون في كل اتجاه، لا يعرفون إلى أين تقودهم أقدامهم، مدفوعين بحتمية فعل يشبه الحركة أو التصرف، والصراع ضد الموت والدمار.

"إلى أين يتيهون على وجوههم هكذا؟ قال: ألا يرون أن المدينة بيد العدو وليس أمامهم مكان يلجأون إليه؟"حدث كل هذا

على عجل. أفاد الآشوريون من كثرة عددهم، ووفروا على محاربيهم خوض الحرب. فأبيد جنود مدينة أكبر تقريباً.
في مركز الميدان، أُلزم إيليا بالسجود، بعد أن قيدوا يديه. لم يعد أحد يسمع هتاف المرأة وعويلها؛ ربما ماتت بسرعة، من دون أن تذوق العذاب البطيء عند حرقها حية. كانت بين يدي السيد، تحتضن ابنها.
لفيف آخر من الجنود الآشوريين يقودون أسيراً شوّهت قسمات وجهه من الضرب واللكم. على هذا، تعرف إيليا على القائد.
"عاشت أكبر! صرخ. وحياة آبدة لفينيقيا ومقاتليها الذين تصدوا للعدو طيلة اليوم! الموت للجبناء الذين يقاتلون في الظلام!"
لم يكد المقدم ينهي عبارته، حتى حز سيف الجنرال الآشوري رأسه.
"الآن أتى دوري. قال إيليا لنفسه. سألقاها في الجنة، ونتنزه يداً بيد".



آنئذ اقترب رجل وراح يناقش الضباط. كان أحد أبناء أكبر، الذين يعيشون في ساحة المدينة. تذكر إيليا أنه قد ساعده على حل قضية مع جاره.

كان الآشوريون يتحدثون بنبرة تزداد عنفاً، ويشيرون إليه بالإصبع.

ركع الرجل، وقبل رجلي أحدهم، باسطاً يديه باتجاه الجبل الخامس وبكى كطفل. بدت رهبة الآشوريين تتناقص.

بدا الحديث طويلاً جداً. الرجل يلتمس ولا يكف عن البكاء، مسمياً إيليا والبيت الذي عاش فيه الحاكم. وبدا الجنود غير راضين.

أخيراً خفض الضابط المحادث صوته، قال:

"إن جاسوسنا، وأشار إلى الرجل، يؤكد أننا مخدوعون. هو الذي أعطانا مخطط البلدة، ويمكن أن نثق به. لست أنت من نريد قتله."

رفس إيليا بقدمه فانكب على الأرض.

"يدّعي أنك أردت الذهاب إلى إسرائيل لقلب الأميرة التي اغتصبت العرش. صحيح هذا؟ "

لم يرد إيليا.

-"أجبني ما الصحيح" ألح الضابط "ونطلق سراحك وتعود إلى بيتك، بحيث يمكنك إنقاذ المرأة وابنها".

- "نعم، هي الحقيقة."

ربما سمعه السيد وهب لمساعدته لإنقاذهما.

ـ"كنّا نقدر أن نأخذك أسيراً إلى صيدا وصور" تابع الضابط. "إنما علينا أن نخوض كثيراً من المعارك، وستكون أنت عبئاً علينا. ويمكن لنا أن نطلب فدية، إنما ممن؟ أنت أجنبي، حتى في بلدك".

ـ"أنت لا جدوى منك. لا خير فيك للعدو ولا للصديق. أنت كبلدتك؛ فلسنا بحاجة أن نترك هنا فصيلاً من جيشنا، لنضع المدينة تحت هيمنتنا. لما سنغزو الشاطئ، ستكون أكبر لنا، في كل حال".

ـ "عندي سؤال" قال إيليا "سؤال فقط".

تأمله الضابط، بحذر واحتراس.

ـ لِمَ هاجمتم في الليل؟ ألا تعرفون أن الحرب دائرة باستمرار؟

ـ لم ننتهك الشريعة. لا يمنعنا التراث أو التقليد، رد الضابط. وقد توفر لنا وقت كاف لنتعرف على الأرض. لقد اهتممتم برعاية العرف والعادة ونسيتم أن الزمن تبدل.

دونما كلمة أخرى، تركوه. اقترب منه الجاسوس وفك قيده.

ـ وعدت نفسي أن أرد لك مروءتك يوماً؛ ولم أحنث. عندما دخل الآشوريون القصر، أبلغهم الحاجب أن الذي تبحثون عنه لجأ إلى بيت الأرملة. الوقت الذي انقضى مكّن الحاكم الحقيقي من الهرب.

لم يصغ إيليا له. زفرت النار من كل حدب وراح الصراخ يلعلع.
في لجة البلبلة والهياج، كان يمكن رؤية الجند و هم يتجمعون بانضباط؛ وانسحب الآشوريون بكل هدوء، تنفيذاً لأمر غير مرئي.
كانت معركة أكبر قد انتهت.



"ماتت، قال. لا رغبة لدي في العودة إليها، ماتت وانتهى الأمر. أو إن معجزة تنقذها، فتقوم وتتبعني".
مع ذلك، ألزمه قلبه أن ينهض ويذهب إلى البيت الذي كانوا يقطنونه. كان إيليا يصارع نفسه؛ ليس حب المرأة فقط هو الذي كان يفعل به ما يفعل في تلك اللحظات، لقد ساوره الشك بكل حياته، إيمانه بما يعمل السيد، مغادرة مسقط رأسه، أنه صاحب رسالة وهو جدير بها.
نظر حوله، باحثاً عن سيف ليضع حداً لحياته، لكن الآشوريين قد أخذوا معهم كل الأسلحة من أكبر. فكر أن يرمي نفسه في اللهب، لكنه خاف الألم.
بقي هنيهة مدهوشاً كليا. وشيئاً فشيئاً، عاد إليه رشده، وقدر أن يفكر بالوضع الذي هو فيه. كانت المرأة وابنها

بالتأكيد قد غادرا الحياة، إنما يجب أن يُدفنا حسب العرف. كرمى للسيد - إن وجد أولاً - و هذا سيكون عزاءه الوحيد في هذا الوقت. لما سيتم واجبه الديني، سيترك نفسه للآلام والشك.

فضلاً عن هذا، ثمة إمكانية أنها ما تزال حية. فهو لا يستطيع أن يبقى هنا من دون أن يفعل شيئاً.

"كم هو صعب أن يروني بوجه محترق شائِه، والعظم من دون لحم ولا جلد. ربما كانت روحهما تطوف بحرية في السموات".

مع ذلك، اتجه نحو البيت حانقاً مذهولاً، عماه الدخان من تمييز دربه. لكنه قدر رويداً رويداً التحقق من وضع المدينة. رغم أن الأعداء انسحبوا، فقد تفاقم الضيق والضنك بصورة رهيبة. كان الناس يتابعون التسكع دونما هدف، باكين نائحين، ملتمسين من الآلهة الموت.

بينما كان يسعى إلى واحدٍ ليطلب منه العون، لم ير سوى رجل بهيئة تائهة، وحال متأزمة.

"الأفضل مغادرة هذا المكان مباشرة والكف عن التماس النجاة."

كان يعرف مدينة أكبر جيداً كما يعرف بلده ونجح بإيجاد طريقه، مع العلم أنه ما كان يتعرف على الأمكنة التي كان يعبرها عادة. الصراخ الذي كان يسمعه هو الآن كان

أكثر تماسكاً. فقد بدأ الشعب يعي المأساة التي وقعت ويجب النهوض للرد عليها.

ـ هوذا جريح هنا!

ـ نحن بحاجة للماء أيضاً! وإلا لن نستطيع السيطرة على الحرائق!

ـ ساعدني! زوجي أسير في الداخل!

بلغ المكان الذي، منذ أشهر، استقبله واستضيف فيه كصديق. كانت عجوز مرمية في وسط الشارع، ليس بعيداً عن البيت، عارية كما ولدتها أمها. ودّ إيليا أن يمد لها يد العون، لكنها دفعته:

ـ "هي تحتضر، صرخت العجوز. أفعل شيئاً ما! ارفع هذا الجدار الذي كاد يخنقها!"

وجعلت تزفر صرخات هستيرية. أخذها إيليا من ذراعيها ودفعها، لأن عويلها منعه من سماع استغاثات المرأة. حوله، كان كل شيء مؤلم، جدران وسطوح انهارت، وكان يشق عليه أن يعرف بدقة أين رأى هذا المشهد لآخر مرة. الحرائق تراجعت لكن الحرارة كانت ما تزال غير محتملة؛ تجاوز الأنقاض التي كانت تغطي الأرض ووصل إلى المكان الذي كانت تقوم فيه غرفة المرأة.

رغم البلبلة والاضطراب في الخارج، تمكن أن يميز استغاثة. كان هذا هو صوتها.

عفوياً، نفض الغبار عن ثيابه، كما ليرتب مظهره. ظل صامتاً، سعياً وراء استجماع أفكاره. سمع طقطقة النار وزفيرها، استغاثات الناس تحت الأنقاض في البيوت المجاورة، وتمنى أن يقول لهم اصمتوا، لأنه كان بحاجة لمعرفة مكان وجود المرأة وابنها. بعد لأي، سمع الصخب مجدداً؛ كان أحد الناس يخرمش الخشب الموجود تحت قدميه.

ركع على ركبتيه وراح ينكش كالمجنون. قلب التراب، الحجارة والخشب. أخيراً، لمست يداه شيئاً دافئاً: كان هذا دماً.

"لا تموتي، أرجوك".

"دع الأنقاض فوقي، قال الصوت. لا أريد سوى أن ترى وجهي. اذهب وأنقذ ابني".

تابع النبش، وردد الصوت:

"اذهب وابحث عن جسد ابني. من فضلك، اعمل ما أطلب منك."

ترك إيليا رأسه ينزل إلى صدره وراح ينتحب بهدوء.

"أنا أجهل أين طمر، أرجوكِ، لا تذهبِ؛ أتمنى أن تبقي معي. أنا بحاجة أن تعلميني الحب، قلبي يتفطر شوقاً للحب".

"قبل مجيئكَ، رغبت في الموت خلال سنين. لقد اضطر الموت أن ينتظرني وأتى الآن يبحث عني."

زفرت أنيناً. عض إيليا شفتيه بصمت. ثمة أحد ربت على كتفه.

بخوف، التفت ورأى الغلام. كان الغبار يكسوه، لكنه يبدو سليماً.

"أين أمي؟ "سأل.

"أنا هنا" رد الصوت من تحت الدمار. "أجريح أنت؟"

راح الطفل يبكي. أخذه إيليا في الأحضان.

"أتبكي، يا ابني، أردف الصوت، بضعف وهزال. كفّ عن البكاء. عاشت أمك دهراً حتى وعت أن للحياة مغزى؛ آمل أن أكون قد نجحت في تلقينك هذا. ما وضع المدينة التي رأيت النور فيها؟"

كان إيليا والطفل هادئين، يعانق الواحد الآخر.

"بحال جيدة، رد إيليا مواربا الحقيقة. قُتل فيها العديد من المحاربين، لكن الآشوريين انسحبوا. كانوا يبحثون عن الحاكم لينتقموا لموت أحد قادتهم."

وساد الصمت ثانية. وثانية راح الصوت ينخفض أكثر فأكثر.

"قل لي إن مدينتي نجت."

قدّر إيليا أنها تعيش آخر لحظاتها.

"المدينة سالمة، وابنك بخير".

ـ وأنت؟

ـ على قيد الحياة.

كان يعرف أن كلماته تحرر روحها وتمكنها من الموت بهدوء.

"قلت لي أنك نبي " أردفت المرأة بعد بعض الوقت. "وأريد أن تحلف لي، باسم السيد إلهك".

ـ لك ما تشائين. كل ما تشائين.

ـ قلت لي يوماً، إن السيد موجود في كل مكان،وآمنت أنا بهذا ،وقلت لي أن الأرواح لا تذهب إلى قمة الجبل الخامس، وصدقتك أيضاً ،لكنك لم توضح لي إلى أين تذهب.

ـ إليك القسم الذي أطلبه منك: لا تبكيني، وليسهر أحدكما على الآخر ـ حتى يأذن السيد لكل منكما اتباع سبيله. بدءاً من الآن، تمتزج روحي بكل ما عرفت على هذه البسيطة: أنا جراحهم، ومستعطيهم، جنودهم، قسسهم، تجارهم وأشرافهم. أنا الأرض التي تطؤوها، والبئر الذي يروي عطش الجميع. لا تبكوني، لأنكم تفتقرون لعلة تحزنكم. منذ الآن، أنا أكبر، والمدينة الجميلة.

خيم صمت الموت،وانكفأ صفير الريح. لم يعد إيليا يسمع صراخاً في الخارج، ولا طقطقة اللهب في زوايا البيوت

المجاورة؛ لم يعد يسمع سوى الصمت، الملموس بقدر ما هو حاد.

آنئذ أبعد إيليا الولد ،ثم مزق إيليا ثيابه، واتجه إلى السماء، وزفر ملأ رئتيه: "يا سيدي وإلهي! من أجلك غادرت إسرائيل، ولم استطع أن أقدم لك دمي كما فعل الأنبياء الذين بقوا هناك. عاملني أصدقائي كجبان، وأعدائي، كخائن.

من أجلك لم آكل سوى ما حمله لي الغربان، واجتزت الصحراء حتى سربتا ، التي يسميها سكانها أكبر. تقودني يداك. التقيت امرأة؛ بتوجيه منك، تعلم قلبي الحب. لكني لم أنس مهمتي لحظة واحدة؛ كل الأيام التي قضيتها هنا ، كنت مستعداً للرحيل.

أكبر الرائعة لم تعد سوى أنقاض، والمرأة التي عهدت إلي بها طُمرت تحتها. فيم أذنبت، يا سيد؟ متى ابتعدت عن رغبتك؟ إن لم تكن راضياً عني، لِمَ لمْ تأخذني من هذا العالم؟ بالعكس، سببت أنا أيضاً مرة أخرى الأذى لأولئك الذين ساعدوني وأحبّوني.

لم أفهم ما رسمت لي. لم أر عدلاً في أفعالك. لست خليقاً بتحمل الوضع الذي فرضته علي. ابتعد عن حياتي، لأني أنا الآخر دمار، نار وغبار.

في لجة النار والأسى، رأى إيليا وميضاً. وظهر ملاك السيد.

ـ ماذا أتيت تفعل هنا؟ سأل إيليا. ألا ترى أن الأوان قد فات؟

ـ أتيت أقول لك أن السيد سمع رجاءك، وما طلبت هو لك. أنت لم تعد تستحق ملاكك ولن أعود لأراك ما لم تتم أيام محنتك وامتحانك.



أخذ إيليا الطفل من يده وراحا يمشيان دونما هدف. كان الدخان الآن، حتى الذي شتته الريح، يتمركز في الشوارع، جاعلاً الهواء غير قابل للتنفس.

"ربما كان هذا حلماً، قال. بل ربما كان كابوساً."

ـ كذبت على أمي، قال الغلام. المدينة دمرت.

ـ ما أهمية هذا؟ إن كانت لم تر ما حدث حولها، فلِمَ لا ندعها تموت سعيدة؟

ـ لأنها تثق بك، وقالت إنها كانت أكبر.

لقد جرح قدمه بنثار الزجاج والسراميك المنتشر في الأرض. الألم أكد له أن ما هو فيه ما كان حلماً، وكل ما حوله، كان واقعاً رهيباً. وصلا الساحة حيث ـ منذ كم من الوقت؟ كان الشعب ملتئماً وحيث ساعد الناس في حل مشاكلهم ونزاعاتهم؛ كانت السماء بلون الذهب من جراء الحرائق.

"لا أريد أن تكون أمي كما أراها، ألح الغلام. أنت كذبت عليها".

تذكر الفتى أن يتمسك بالقسم؛ فلم يذرف دمعة واحدة.

ـ ماذا أستطيع أن أفعل؟ تساءل إيليا. كانت قدمه تنزف، وقرر أن يكتم وجعه؛ وهذا ما أبعده عن اليأس.

تأمل الثلم الذي تركه سيف الآشوري على جسمه؛ لم يكن عميقاً كما كان يتصور. قعد مع الغلام تماماً حيث ربطه الأعداء وأنقذه أحد الخونة. لم يعد الناس يركضون؛ كانوا يمشون في وسط الدخان، الغبار والدمار، كما الأموات الأحياء. حتى ليقال إنهم أرواح نسيتهم السماء، فأدينوا بالتيهان الأزلي على الأرض. لا حس ولامغزى.

كان البعض يقاوم؛ استمر سماع أصوات النساء وأوامر اعتراض الجند الذين نجوا من المجزرة. لكنهم كانوا قلة ولم يجنوا أي حصيلة.

قال الكاهن الكبير مرة أن العالم كان حلم للآلهة كلهم. وإن كان، في العمق، على حق؟ أيستطيع الآن أن يساعد الآلهة على اليقظة من هذا الكابوس وأن يناموا ثانية على حلم أحلى؟ عندما كان لديه رؤى بائسة خائرة، كان يستيقظ ويعود دوماً إلى النوم؛ لِمَ لا يحدث ذات الشيء مع خالقي الكون؟

كـان يصـطدم بـالأموات. لا أحـد مـنهم بـات يهـتم بـدفع الضـرائب، بالآشـوريين المعسـكرين في الـوادي، بـالطقوس الدينيـة أو بوجـود الـنبي الهـائم بـدون هـدف والـذي، ربمـا، خاطبهم يوماً ما.

"لا أقدر أن أبقى هنا. الأمانة التي عهدت بها لي هنا هي ابنها، وأنا سأطلع بهذه العهدة، حتى ولو كانت آخر مهمة لي على هذه الأرض".

بجهد وعناء، نهض، أخذ يد الولد، وعاد إلى السعي. كان ناسٌ يسرقون المخازن والدكاكين التي بعثرت موادها. لأول مرة، حاول إيليا التدخل بالأحداث وطلب إلى اللصوص أن يتوقفوا لأن هذا حرام.

لكنهم دفعوه بعنف قائلين: "نحن نأكل بقايا ما سلبه الحاكم نفسه. دعنا إذن".

لم يكن لدى إيليا قوة على المجادلة والمشاحنة؛ قاد الفتى إلى ظاهر هذه البلدة وغابا في منعطفات الوادي. إن الملائكة لن يعودوا ثانية بسيوفهم النارية.

"القمر بدر."

بعيداً عن الدخان والغبار، كان ضوء القمر ينير الفضاء. قبل ساعات، لما حاول إيليا أن يترك المدينة ويتجه إلى القدس، وجد دربه بسهولة؛ وهذا ما حدث مع الآشوريين.

اصطدم الغلام بجدث وزفر صرخة. كانت هذه جثة كبير الكهنة؛ كانوا قد قطعوا يديه وساقيه لكنه كان ما يزال حياً ومحدقاً بعينيه إلى الجبل الخامس.

"ألا ترى، لقد كسب الآلهة الفينيقيون المعركة السماوية"، قال بصعوبة بصوت واطىء. كان الدم يراق من فمه.

ـ الألم لا يعني شيئاً أمام إتمام واجبي.

ـ واجبك تدمير مدينة الناس الأطهار؟

ـ المدن لا تموت؛ فقط يموت سكانها والأفكار التي يحملونها. في يوم يأتي آخرون إلى أكبر، يشربون ماءها وسيصقل حجر مؤسسها ويحميها كهنة جدد. إليك عني، سيزول وجعي في الحال، بينما سيستمر يأسك مدى الدهر.

كان الجسد المثخن بالجراح والمقطع الأطراف يتنفس بصعوبة، وعافُه إيليا. في هذه اللحظة، ركض إليه لفيف من الرجال والنساء والأولاد وأحاطوا به.

"هذا أنت! صرخوا. لقد لطخت شرف بلدك، وجلبت اللعنة إلى مدينتنا!"

ـ لتكن الآلهة شهوداً! ولتعلم من المجرم!

دفعه الرجال بعنف و امسكوا كتفيه، احتمى الولد بيديه وتوارى، صفع الجنود إيليا، ولكموه في صدره وظهره، لكن الغلام كان همه الأول؛ ولم يستطع إبقاءه في حمايته.

لم يدم العقاب طويلاً، ربما لأنهم تعبوا من هذه الوحشية التي مارسوها. وانهار إيليا إلى الأرض.

"ارحل من هنا، صرخ به أحدهم. لقد كافئت رحمتنا لك بحقدك!"

ابتعد الفصيل. ولم يجد إيليا قدرة على النهوض. ولما استطاع تهدئة الخجل الذي عاناه، كان صار رجلاً آخر. لا يشاء أن يموت، ولا الاستمرار في الحياة. ما كان يريد شيئاً: فقد الحب، الكره والإيمان.



استيقظ بلمسة يدٍ على وجهه. كان الليل ما يزال والقمر غادر السماء. "وعدت أمي أن أسهر عليك، قال الغلام. لكني لا أعرف كيف".

ـ عد إلى المدينة. الناس طيبون وستلقى من يستقبلك.

ـ أنت جريح. وعلي أن أضمد ذراعك. ربما يظهر ملاك ويقول لي ما أفعل.

ـ أنت طفل. لا تعي ما يحدث! هتف إيليا. لن يعود الملائكة، لأننا ناس عاديون، وكل الناس ضعاف أمام الألم. وعندما تحل النكبات، يتكفل الناس العاديون شؤونهم بوسائلهم الخاصة!

تنشق الهواء وحاول أن يهدأ؛ ولم يجد ما يتحدث به.

ـ كيف وصلت إلى هنا.

ـ أنا لم أغادر.

ـ إذن رأيت خجلي.. ورأيت أن ليس لديّ ما أفعل في أكبر.

ـ قلت لي أن كل المعارك تخدم أمراً معيناً. حتى ذاك الذي خسرناه.

تذكر النزهة إلى البئر، في الصباح الفائت. إنما خيل له أن أعواماً مضت منذئذ، وودّ أن يدحض القول أن الكلام الطيب لا مغزى له عند مواجهة الألم؛ مع ذلك فضل ألاّ يخيف الطفل بهذه الحقيقة.

"كيف نجوت من الحريق؟"

خفض الولد رأسه.

"أنا لم أنم. قررت أن أقضي الليل ساهراً لأعرف إن كنت وجدت أمي في غرفتها. وقد رأيت الجند يدخلون."

نهض إيليا وبدأ يمشي. بحث عن الصخرة، أمام الجبل الخامس، حيث، شاهد بعد ظهر أحد الأيام، غياب الشمس مع المرأة.

"لست مضطراً إلى الذهاب، قال لنفسه. إذ سيشتد بؤسي وأساي."

لكن قوة ما شدته إلى ذلك الاتجاه. ولما وصل. بكى بمرارة؛ كان كمدينة أكبر، كان المكان موشوماً بحجر ـ لكنه كان وحده، في بقعة من الوادي، ليفهم المغزى؛ لن تتشرف أكبر بسكان جدد، ولا بأزواج يكشفون مغزى حبهم.

احتضن الولد واستلقى لينام.

"أنا عطشان وجوعان"، قال الولد لإيليا، الذي استيقظ للتو.

ـ يمكننا أن نذهب إلى الرعاة الذين يعيشون هنا. لا أحد يتعرض لهم هنا لأنهم لا يسكنون في أكبر.

ـ يجب علينا أن نرمم المدينة. قالت أمي إنها أكبر.

ـ أي مدينة؟ لم يعد فيها لا قصور، لا أسواق، ولا أسوار. تحول الناس المنعمون إلى قطاع طرق، وذُبح الشبابُ. لن يعود الملائكة ـ إنما كان هذا أصغر همومي.

"أترى أن الدمار، الألم، وموتى الليلة الفائتة كانت ذات مغزى؟ أتظن أنه لا بد من إبادة آلاف الأحياء لتعليم أحدهم طريقة رؤية الأشياء؟"

حدق إليه الفتى بهيئة مضطربة.

"انسى ما قلت لك"، قال إيليا. "هلم نسعى إلى المراعي".

ـ "وهيا نحيي المدينة"، أردف الغلام.

لم يجب إيليا. كان يعرف أنه لن يتوصل إلى فرض سلطته على الشعب الذي يتهمه بجلب النكبة. كان الحاكم قد

هرب، القائد قتل، وستسقط صور وصيدا على الأرجح قريباً بين يدي الأجنبي. ربما كانت المرأة محقة؛ أن الآلهة يتبدلون كثيراً ـ وهذه المرة كان السيد هو من غادر.

"متى نرجع إلى هنالك؟" استفهم الطفل ثانية.

أخذه إيليا من كتفيه وراح يهزه بعنف.

"أنظر خلفك! لست ملاكاً ضريراً، بل فتى يرغب في معرفة ماذا حصل لأمه. ماذا ترى؟ أرأيت أعمدة الدخان الصاعدة إلى السماء؟ أتعلم ما يعني هذا؟"

ـ أنت تنكدني. أودّ أن أذهب من هنا. أريد أن أرحل!

توقف إيليا، خائفاً من وضعه: أبداً لم يتصرف هكذا. ابتعد الفتى وجعل يركض باتجاه المدينة. تمكن من إدراكه وركع على ركبتيه أمامه.

"اعذرني. لا أعرف ما أفعل."

انتحب الغلام، لكن دموعه قد جفت. قعد قربه، بانتظار أن يهدأ.

"لا تذهب" طلب منه. "قبل أن تغادر أمك وعدتها أن أظل معك حتى تستطيع معرفة دربك".

ـ وعدتها أيضاً أن المدينة سليمة. وقالت...

ـ لا فائدة من التكرار. أنا خجول، ضائع في خطيئتي. دعني أعود إلى رشدي. سامحني، أنا لا أود أن أجرحك.

شد إيليا الفتى إلى صدره. لكن دمعة واحدة لم تذرف.

وصلا إلى بيت في جوف الوادي؛ كانت امرأة تجلس قرب الباب وطفلان يلعبان أمامها. كان القطيع في الزريبة ـ ما يعني أن الراعي ما ذهب إلى الجبال في ذلك الصباح.

حدقت المرأة خائفة إلى الرجل والولد القادمين لملاقاتها. تمنت غريزياً أن تطردهما، لكن التراث والتقاليد ـ والآلهة ـ فرضت عليها طاعة الشريعة العامة حول القِرى. فإن لم تستقبلهما الآن، قد يصيب أبناءها أذى مماثل في يوم ما.

ـ"ما عندي نقود، قالت. لكن بإمكاني إعطاءكما ما تأكلان وما تشربان."

جلسا في الشرفة الصغيرة المظللة بسقف من قش، وجلبت المرأة ثماراً مجففة وحُقّ ماء. أكلا بسكينة، استعادا قليلاً، لأول مرة منذ الليل الفائت، من حركاتهما اليومية. كان الطفلان واجفين من هيئة القادمين الجديدين، فلجأا إلى داخل البيت.

ما أن أنهى وجبته، حتى سأل إيليا عن الراعي .

ـ"لن يتأخر، ردت. سمعنا جلبة صاخبة، وفي هذا الصباح وفد إلينا أحدهم أنبأنا أن أكبر دمرت. ذهب الراعي ليعرف ما حدث."

ناداها ولداها ولبث النداء. "لا جدوى من محاولة إقناع الغلام" قال إيليا في نفسه "ما لم ألبّ له ما يطلب لن يتركني أهدأ. علي أن أثبت أن هذا محال".

أفرز الغذاء والماء معجزات؛ حسّ ثانية أنه جزء من العالم. كانت أفكاره تتدفق بسرعة لا تصدق، باحثاً عن حلول قبل الأجوبة.



بعد برهة، وصل الراعي. قلقاً على سلامة أسرته، حدق بوجل إلى الرجل والفتى. لكنه بسرعة وعى الوضع، وقال:

"أنتما بالتأكيد فارّين من أكبر. أنا آت من هناك".

ـ ما يحدث، سأل الغلام.

ـ المدينة دمار والحاكم هرب. الآلهة هدموا العالم.

ـ خسرنا كل شيء، أردف إيليا. نحن نتمنى أن تستقبلونا..

ـ زوجتي استقبلتك وأطعمتك,الآن عليك أن تذهب وتجابه ما لا مهرب منه.

ـ لا أعرف كيف أدبر شأن الطفل ,أنا بحاجة للعون.

ـ لكن بلا شك، أنت تعرف. هو فتى، يبدو عليه الذكاء والنباهة، وهو كتلة طاقة. وأنت، عندك خبرة وتجربة رجل اجترح الكثير من الانتصارات والهزائم في حياته. وهذا توليف

تام لأنه يقدر أن يساعدك على السير في السبيل و التحلي بالحكمة."

حدق إلى الجرح في ذراع إيليا وتأكد أنه ليس خطراً؛ ذهب ليبحث في البيت عن أعشاب ومزقة من نسيج. ساعده الغلام على وضع الكمادة. لما رآه الراعي قادراً على وضعها من دون مساعدة، رد الولد أنه وعد أمه بالسهر على هذا الرجل.

ضحك الراعي "ابنك كائن صادق الوعد".

ـ لست ابنه. وهو الآخر رجل صادق الوعد. سيعيد بناء المدينة لأنه التزم بإعادة الحياة إلى أمي، تماماً كما فعل معي.

أدرك إيليا فجأة ما يهم ويشغل بال الفتى، لكنه قبل أن يدلي بكلمة، نادى الراعي امرأته و التي في هذه اللحظة بالضبط ظهرت من البيت، إنه مسافر قريباً. وأعلن: "يفضل إرجاع الحياة دونما تأخر، فهذا يحتاج إلى وقت طويل لكي يرجع كل شيء كما كان".

ـ لا شيء يعود كما كان.

ـ يخيل لي أنك رجلٌ حليمُ حكيم، وأنت قادر على فهم ما لا أفهمه أنا. لكن الطبيعة علمتني درساً لن أنساه: الرجل يرتبط بالوقت والفصول، كما يرتبط بها الراعي،فهو يقدر أن يقاوم الأحداث الحتمية. يسهر على قطيعه، يعالج كل دابة كما لو كانت وحيدة، يسعى لرعاية الأمهات والأبناء، لا

يبتعد كثيراً عن مكان سقاية قطيعه. على هذا، قد تموت نعجة من وقت لآخر، خصها بكثير من الجهد، في حادث، سببته أفعى، حيوان كاسر، أو حتى نتيجة سقطة في هاوية. ما لا مناص منه يحدث كثيراً.

سدد إيليا نظرة باتجاه أكبر وتذكر الحديث مع الملاك. المحتم يتم غالباً.

ـ يجب إقامة الانضباط والصبر من أجل تخطيه، أضاف الراعي.

ـ والأمل. عندما يُفتقد الأمل، لا يجوز تبديد الطاقة في مواجهة المستحيل.

ـ ليست قضية أمل بالمستقبل. بل القصد هو إعادة خلق الماضي نفسه.

لم يعد الراعي محرجاً، كان قلبه عامراً بالشفقة على هؤلاء اللاجئين. ما دامت أسرته لم تصب بسهام المأساة، لن يكلفه مدّ يد العون لهما ـ وإرضاء الآلهة. فضلاً عن أنه سمع من يتحدث عن النبي الإسرائيلي الذي تسلق الجبل الخامس ولم تحرقه نار السماء؛ ما يشير أن ذاك النبي هو هذا الرجل الواقف أمامه.

"لك أن تبقى عندنا يوماً آخر، إن شئت".

ـ لم أفهم ما قصدت أن تقول، أردف إيليا. بصدد إعادة خلق الماضي نفسه.

ـ رأيت مراراً الناس الذين كانوا يمرون من هنا ليذهبوا إلى صور وصيدا. كان البعض يشكو من عدم النجاح في أكبر، وكانوا يبحثون عن مستقبل جديد. في يوم، عاد هؤلاء الناس. لم يجدوا ما بحثوا عنه، لأنهم كانوا يحملون معهم ما هو غير حاجتهم، أي وزر فشلهم السابق. كانوا على الأغلب يعودون إلى خدمة الدولة، و قد يكونوا حصلوا على تعليم ممتاز لبنيهم ـ إنما لا شيء آخر، لأن الماضي في أكبر جعلهم خائفين، وما كانوا يولون ثقتهم الثابتة للمستقبل و يخشون التعرض للأخطار.

وأيضاً، مر أمام بابي ناس عامرين بالحماس والتعاطف. كانوا يفيدون من كل دقيقة عاشوها في أكبر و ربحوا ـ بجهد باهظ ـ الدراهم الضرورية للسفر الذي كانوا يودون القيام به. بالنسبة لهم كانت الحياة نصراً دائماً، وتستمر في الوجود. هؤلاء أيضاً عادوا، إنما مع قصص رائعة. كانوا قد جنوا كل ما رغبوا فيه لأنهم ما كانوا يحفلون بما حرموا منه في السابق.



لامست أقوال الراعي قلب إيليا.

ـ ليس صعباً العثور على حياة، كما ليس مستحيلاً بعث أكبر من الركام، تابع الراعي. يكفي من أجل هذا توفر الوعي الذي كان له نفس قوة الماضي، واستخدامه لمصلحتنا.
تأمل الرجل عينيه.
ـ إن كنت ذا ماض لا يرضيك أنسهُ الآن. تصور قصة أخرى لحياتك وآمن بها. ركز ذاتك حيث نجحت فيما ترغب ـ وهذه الطاقة تعينك على جني ما تريد.
ـ في زمن مضى رغبت في أن أكون نجاراً ـ صانع توابيت، ثم تمنيت أن أكون نبياً مرسلاً لخلاص إسرائيل، قال إيليا. هبط الملائكة من السموات، وكلمني السيد. ومن ثم فهمت أنه لم يكن هو السيد وأن أهدافه هي دوماً أبعد من أمنياتي.
هتف الراعي إلى امرأته ألاّ تذهب ثانية ـ فقد سوي الأمر، كان قد ذهب مشياً حتى أكبر وأنه لا يمتلك الجرأة لمشي الطريق ثانية.
ـ شكراً لإيوائكم لنا، أردف إيليا.
ـ إيواؤنا لكم لليلة واحدة ليس شيئاً يذكر.
تدخل الولد بالحديث:
ـ نريد العودة إلى أكبر
ـ انتظر حتى الغد. سكان المدينة منصرفون لقلبها رأساً على عقب، وليس ثمة مكان للنوم.

حدق الغلام إلى الأرض، كزّ شفتيه، ومرة أخرى، تماسك عن البكاء.

أخذهما الراعي إلى الداخل، طمأن امرأته وأبناءه وقضى ما بقي من النهار في الحديث عن أشياء عامة للتسرية عن الإثنين.

في الغد استيقظوا باكراً، أفطروا ما حضرته امرأة الراعي وانطلقوا حتى باب البيت.

ـ أتمنى لك حياة مديدة وازدهاراً لقطيعك، قال إيليا. تناولت حاجة جسدي، وتعلمت روحي ما كانت تجهل الآن. إني أصلي لئلا يهمل الله ما فعلت من أجلنا، وألاّ يكون أبناؤك غرباء أبداً على أرض غريبة.

ـ أنا لا أعرف إلى أي إله تتوجه؛ هم كثر، سكان الجبل الخامس، قال الراعي بعنف. ثم في الحال، وقد غيّر النبرة: "تذكر الأشياء الطيبة التي حققتها. تعطيك الجرأة.

ـ هي قليلة، ولا خير ولا فضل لمناقبي.

ـ إذن عليك أنت أن ترمم الوضع وتبدل سلوكك، وتكثر مما فعلت.

ـ ربما استطاع الحاكم مهاجمة الآشوريين عندما وصلوا إلى الوادي مع مقاتليهم. أو التفاوض بشأن الحرب قبل نشوبها.

ـ كل ما يمكن أن يقع ولم يقع، تحمله الريح ولا تبقي له أثراً، قال الراعي.

ـ الحياة تصنعها مواقفنا. وثمة أشياء تكرهنا الآلهة على فعلها. لا أهمية لعلتها أو دافعها، وبذل كل جهد ممكن لا ينفع مقدار حبة خردل.

ـ لمَ؟

ـ سل نبياً إسرائيلياً كان يعيش في أكبر. يبدو أن لديه جواب لكل سؤال.

اتجه الرجل نحو الزريبة. "علي أن آخذ قطيعي إلى المرعى. البارحة، لم تخرج الدواب وهي غير صبورة."استأذن بهزة من رأسه وابتعد مع نعاجه.

تقدم الولد والرجل في الوادي.

ـ أنت تسير ببطء، قال الغلام. أنت تخشى مما قد يقع لك.

ـ لا أخاف إلا من ذاتي، أجاب إيليا. لن يستطيع احد إيذائي، لأن قلبي غادر صدري.

ـ الله الذي أعادني من الموت ما يزال حياً. يستطيع إعادة أمي، إن فعلت أنت نفس الشيء مع المدينة.

ـ انس هذا الله. إنه بعيد، ولن يجترح المعجزة التي ننتظرها منه.

الراعي محق. منذ الآن، كان يتوجب عليه أن يعيد بناء ما كان في الماضي، أن ينسى أنه كان يوماً نبي التزم بتحرير إسرائيل، لكنه فشل في مهمة إنقاذ مدينة بسيطة.

أشعرته هذه الفكرة بإحساس غريب من الارتياح. لأول مرة في حياته، أحس بالتحرر، بالاستعداد لفعل ما يريد، لما يريد. لن ينتظر بعد الآن الملائكة، لكنه بالمقابل كان حراً من الرجوع إلى إسرائيل. والعودة إلى مزاولة النجارة وصنع الصلبان، والسفر إلى اليونان لمتابعة علم الحكمة والحلم، أو الوصول ببحارته الفينيقيين إلى بقاع الشاطئ من البحر لكن قبل كل شيء يجب أن يثأر. فقد أوقف أفضل سني عمره للرب الأصم الذي كان يعطيه أوامر باستمرار لينفذها دوماً على طريقته هو. تعلّم أن يقبل قراراته ويحترم خططه. لكن إخلاصه كوفئ بالإهمال، بتجاهل نكران الذات، والجهود من أجل إتمام الإرادة السامية أفضت إلى موت المرأة الوحيدة التي أحب في حياته.

"بتصرفك كل قوى العالم وكواكبه"، قال إيليا بلغته الأم، لئلا يفهم الفتى ما حكى. "لك أن تدمر مدينة، بلداً، كما نبيد الحشرات. إذن أرسل نار السماء وضع نهاية لوجودي في الحال، وإلا سلكت عكس عملك."

تظهر أكبر من بعيد. يأخذ يد الغلام ويشد عليها بكل قواه.

ــ من الآن حتى نتخطى أبواب المدينة، سأمشي بعينين مغمضتين؛ يجب أن تقودني، قال للفتى. إن متُّ في أثناء المسير، افعل ما طلبت مني أن أفعل؛ أعد تعمير أكبر، حتى

إن تطلب منك هذا أن تكبر أولاً، ثم تتعلم قطع الخشب أو تسوية الحجارة.

بقي الفتى ساكتاً. أغمض إيليا عينيه وترك قيادته للغلام. كان يصغي إلى هبوب الريح ويسمع وقع خطاه على الرمل.

تذكر موسى. بعد أن تحرر وقاد الشعب المختار في الصحراء، متخطياً عقبات عديدة، منعه اللّٰه من دخول أرض كنعان. آنئذ، قال موسى: اسمح أن أنتقل إلى الضفة الأخرى، وأرى البلد الطيب الواقع خلف نهر الأردن.

لكن السيد كان قد رفض التماسه.وأجاب:"استرح، وكف عن مخاطبتي بهذا الشأن. ارفع عينيك نحو الغرب ونحو الشمال، نحو الجنوب ونحو الشرق؛ افتح عينيك جيداً لأنك لن تعبر الأردن إلا بعينيك".

هكذا كافأ السيد موسى على مهمته الطويلة والشاقة: لم يسمح له أن يضع قدمه في الأرض الموعودة. ماذا يحدث إن عصى؟

التفت إيليا ثانية إلى السماء.

"يا سيد، لا تدور هذه المعركة بين الآشوريين والفينيقيين، بل بينك وبيني. لم تخطرني بحربنا الفريدة وـ كما الأمر أبداً ـ ربحت وأنجزت إرادتك. دمرت المرأة التي أحببت والمدينة التي استضافتني يوم كنت بعيداً عن وطني."

هب الريح قوياً فأصم أذنيه. خاف إيليا، لكنه تابع:
"كان محالاً علي أن أعيد الحياة للمرأة، لكني قادر أن أبدل خطة عملك في التدمير. قبل موسى إرادتك، ولم يجتز النهر. أنا، تابعت: اقتلني على الفور، لأنك، إن خولتني الوصول إلى أبواب المدينة، سأعيد إلى الوجود ما أردت له أن يختفي عن سطح الأرض".
سكت. رأى خواء روحه وانتظر الموت. ولفترة مديدة، ركز ذهنه فقط على وقع الخطى على الرمل؛ كان يرغب في عدم سماع صوت الملائكة أو تهديد السماء. كان قلبه حراً ولم يعد وجلاً مما يقع له.على هذا، في أعماق نفسه،بدأ شيء ما يعكره ، كمن نسي عنصراً بالغ الأهمية.
بعد برهة، توقف الفتى وهز ذراع إيليا، وقال:
"وصلنا"
فتح عينيه. لم تنهمر نار السماء عليه وكانت أسوار أكبر المدمرة تحيط به.



شخص إلى الطفل الذي أخذ يده كمن يخشى عليه من الهرب. أكان يحبه؟ لا يعرف. لكن التأملات يمكن أن

تؤجل بعض الوقت؛ عنده الآن مهمة يجب إنجازها ـ الأولى منذ سنوات و التي لم يفرضها الله.

حيث كان يرتاح، استطاع أن يشم رائحة الحريق. كانت النسور تحلق في السماء، بانتظار اللحظة المؤاتية لتزدرد جيف الحرس التي كانت تتعفن في الأرض. أخذ إيليا السيف من نطاق جندي ميت. في بلبلة الليل الفائت، نسي الآشوريون جمع الأسلحة التي كانت خارج المدينة.

ـ لماذا تأخذ هذا السيف؟ سأل الفتى.

ـ لأدفع عن نفسي.

ـ الآشوريون بارحوا المكان.

ـ مع ذلك يفضل أن لا أكون أعزل. يجب أن نكون مستعدين.

كان صوته يرتعش. كان محالاً الحدس بما سيحدث عند اجتياز السور شبه المدمر، لكنه كان جاهزاً لقتل أي إنسان يحاول إذلاله.

ـ كنت محطم الأوصال لهذه المدينة المنكوبة، أنا لم أتم مهمتي.

بسم الطفل، وأردف:

ـ تتحدث حديث الماضي لا تخول نفسك التعسف بالكلام.

ـ قبل الآن، عملت على طرد جزابيل من العرش وإعادة إسرائيل إلى السيد، أما الآن وقد نسينا، علينا نحن أيضاً أن ننساه. تكمن رسالتي فيما طلبت أمك مني.

حدق إليه الغلام، من دون ثقة.

ـ من دون اللّه، لن تعود أمي من بين الموتى.

داعب إيليا رأسه.

ـ جسد أمك وحده ذهب. إنها أبداً معنا، وكما قالت لنا، هي أكبر، التي علينا أن نساعدها على استعادة روعتها.



كانت المدينة شبه صحراء. شيوخ، نساء وأطفال يطوفون في الشوارع ـ مرددين المشهد الذي رآه طيلة ليل الغزو. كانوا يبدون لا يعرفون ماذا يفعلون، ماذا يقررون.

كلما مرّا من أمام أحد الناس، كان الولد يلاحظ أن إيليا يشد بكل قوته على قبضة السيف. لكن الناس كانوا يبدون اللامبالاة: كان أغلبهم يعرف نبي إسرائيل، البعض يحييه برأسه، لا أحد يقول له كلمة ولا يظهر له بغضاً.

"لقد فقدوا حتى الإحساس بالغضب"، قال، متأملاً الجبل الخامس الذي تظل قمته مغطاة بغيومها الأبدية. آنئذ تذكر كلام السيد.

"سأرمي جثتكم على جثث آلهتكم؛ روحي ستتخلى عنكم. بلدكم سيُجتاح ومدنكم ستُدمر.ومن يبقى منكم، سأضع في قلبه القلق ويلاحقه كحفيف ورقة أين تحرك. وسينهارون من دون أن يتبعهم أحد."

"هوذا ما فعلت، يا سيد: نفذت كلمتك، والموتى الأحياء يجوبون أصقاع الأرض. وأكبر هي المدينة المختارة لإيوائهم."

يبلغ الإثنان المكان الرئيس، يقبعان فوق الأنقاض وينظران إلى ما حولهما.

بدا الدمار أقسى وعديم الرحمة بل و أفدح مما اعتقدا ،أغلب السطوح منهارة والقاذورات والحشرات تعمّ في كل مكان.

"يجب دفن الموتى، قال. أو يكتسح الطاعون المدينة من أوسع باب".

حافظ الفتى على عينين مطأطأتين.

"ارفع رأسك، يجب أن نعمل كثيراً لكي تكون أمك مسرورة".

لكن الغلام لم يطع؛ بدأ يفهم أن الجسد الذي منحه الحياة يقبع في مكان ما من هذا الدمار المترامي، وأن هذا الجسد كان ككل المنتشرين حوله.

لم يلح إيليا. نهض، أخذ جدثاً فوق كتفيه وحمله إلى مركز الساحة العامة. لم يستطع أن يتذكر وصايا السيد حول دفن

الموتى؛ كل ما رأى أن يفعل، كان منع انتشار الطاعون وكان الحل الوحيد حرقهم.

عمل بذات المنوال كل ما قبل الظهر. لم يغادر الولد المكان ولم يرفع عينيه لحظة. إنما تمسك بالوعد الذي قطعه لأمه: لا تذرف دمعة على أرض أكبر.

وقفت قربهم امرأة وظلت برهة تراقب نشاط إيليا، ولاحظت "يتخلص من أجداث الموتى الرجل الذي كان يحل مشاكل الأحياء"

ـ أين هم إذن رجالات أكبر؟ سأل إيليا.

ـ رحلوا وحملوا معهم ما بقي. لم يتركوا ما يستحق الوقوف عنده. وحدهم الذين لم يتركوا المدينة هم غير القادرين على المغادرة: العجزة، الأرامل، واليتامى.

ـ لكنهم كانوا هنا منذ أجيال! فلما تكون المغادرة سهلة عليهم.

ـ حاول إيضاح هذا لمن فقد كل شيء.

قال إيليا وهو يرفع أحد الأجداث على ظهره ويضعه فوق غيره "سنحرقهم لئلا يأتي إله الطاعون ليزورنا. فقد أرعبته دائما رائحة اللحم المحترق"

ـ ليأت إله الطاعون، أردفت المرأة. وليحملنا جميعاً، فوراً.

تابع إيليا العمل.جلست المرأة إلى جانب الطفل وتملّتهُ وهو يعمل. بعد برهة، اقتربت أكثر.

- لمَ ترغب في إحياء مدينة مدانة؟

أجاب: إن تريثت لأفكر، سأجد نفسي غير خليق أن أتصرف كما أشاء.

الراعي محق: كان نسيان الماضي غير الأكيد وخلق تاريخ جديد هو المخرج الوحيد. كان النبي السابق قد مات مع المرأة في حريق بيته؛ الآن، ثمة رجل لا يؤمن بالله، تسكنه شكوك عديدة. لكنه ما زال حياً، حتى بعد تحديه اللعنة الإلهية. إن أراد متابعة سبيله، يجب أن يتابع نصائحهم.

انتقت المرأة الجدث الأخف وجرته من رجليه حتى الكدسة التي بدأها إيليا، وقالت: "ليس هذا خوفاً من إله الطاعون ولا كرمى لأكبر، ما دام الآشوريون راجعين قريباً. هيأت مكاناً يجلس الغلام فيه، يجب أن يعي أن الحياة مديدة أمامه".

- شكراً، أردف إيليا.

- لا تشكرني. في مكان ما بين هذا الركام، سنجد جسد ابني. كان من عمر هذا الفتى.

ووضعت يدها على وجهها وراحت تبكي بحرقة ومرارة. فمسكها إيليا من ذراعها بتؤدة.

"إن الألم الذي عانيناه أنت وأنا لن يمحى أبداً، لكن العمل يعيننا على تحمله. فالمعاناة غير قادرة على صرع بدن تعب."
وقد كرسوا يوماً كاملاً لهذه المهمة المرعبة. جمعوا وكوموا الأموات؛ كان أغلبهم في مقتبل العمر اعتبرهم الآشوريون.عناصر في جيش أكبر. لكنه تعرف على أصدقائه أكثر من مرة، وبكى، دون أن يتوقف عن العمل.



بعد ظهر النهار، كانوا قد تلفوا تعباً. على هذا، كان العمل المنجز بعيداً جداً عن الانتهاء؛ ولم يمد أحد من سكان أكبر لهم يد المؤازرة.
عاد الإثنان إلى جنب الولد. و لأول مرة، يرفع رأسه.
"أنا جائع"، قال.
ـ أود أن أسعى إلى أي قوت، أجابت المرأة. ثمة الكثير من الغذاء المخزون في اهراءات أكبر: كان الناس يتأهبون لحصار طويل.
ـ هات طعاماً لي ولك لأننا نعتني بالمدينة بعرق الجبين، أردف إيليا إنما إذا كان هذا الصغير يريد أن يأكل، عليه أن يكفي نفسه وحده.
فهمت المرأة؛ كانت تصرفت بذات الطريقة مع ابنها. ذهبت

إلى حيث كان بيتها يربض؛ كان اللصوص كلهم تقريباً ذهبوا للبحث عن القيم من المتاع.

فوجدت مجموعتها من الأواني التي صنعها خير عمال أكبر، قطعاً متناثرة في الأرض. لكنها عثرت على كل الطحين والثمار المجففة التي ادخرتها.

رجعت إلى ذات المكان واقتسمت الغذاء مع إيليا. الطفل لم يقل شيئاً.

دنا عجوز: "رأيت أنكم قضيتم كل النهار في جمع الجثث. أنتم تضيعون وقتكم. ألا تدرون أن الآشوريين سيعودون بعد احتلال صور وصيدا؟ وأن إله الطاعون عائد ليقيم هنا، ليدمرهم أيضاً".

ـ نحن لا نفعل هذا من أجلهم، ولا من أجلنا، رد إيليا. إنها تعمل بغية تلقين الفتى أن ثمة مستقبلاً له. وأنا أعمل لأدل أن الماضي أفل نجمه.

ـ إذن، لم يعد النبي تهديداً لأميرة صور العظمى: يا لها من مفاجأة! ستحكم جزابيل إسرائيل حتى آخر أيامها، وسيكون لنا بالتأكيد مكان نلجأ إليه، إن لم يكن الآشوريون كراماً مع المحتلة أرضهم.

ظل إيليا ساكتاً. والاسم الذي أوحى له في السابق بهذا الغل الكبير يرن الآن بطريقة شديدة الغرابة.

ـ ستعمر أكبر، بكل حال، ألح العجوز. الآلهة الذين اختاروا أمكنة بناء المدن، لن يغادروها؛ أما نحن، لنا أن نترك هذا العمل للأجيال القادمة.

ـ نقدر. لكننا لن نفعل.

أدار إيليا ظهره إلى الرجل المسن، واضعاً حداً للحديث.



نام الثلاثة في العراء. أخذت الأم الولد بين ذراعيها ولاحظت أن الجوع نفخ معدته. فكرت أن تعطيه شيئاً من الغذاء؛ لكنها بدلت رأيها على الفور: التعب الجسدي يخفف الوجع فعلاً، وهذا الولد، الذي يعاني من الألم، يجب أن يهتم بشيء ما ربما أقنعه الجوع بالعمل.

في الصباح الباكر، عاد إيليا والمرأة إلى العمل. والعجوز الذي دنا منهما في العشية عاد ليراهما. قال:

"أنا شاغر الأعمال وأود أن أعينكما. لكني أضعف من أن أحمل الجثث".

ـ إذن أجمع الخشب والآجر. واجمع الرماد.

بدأ الشيخ العمل.



بلغت الشمس السمت، قعد إيليا في الأرض، متلاشياً. كان يعرف أن ملاكه كان إلى جنبه لكنه لن يلبي طلبه. "ما جدواه؟ لم يستطع مؤازرتي لما احتجته، والآن، لا أريد نصائحه؛ كل ما يجب أن أفعله، هو أن أترك هذه المدينة في حالة عادية مستتبة، أن أثبت لله أني قمت بمجابهته، وبعدئذ أذهب حيث أشاء".

لم تكن أورشليم بعيدة، مشي سبعة أيام فقط على الأقدام، دونما معابر صعبة، لكنه هناك مطلوب كخائن. ربما كان الأفضل أن يقصد دمشق، أو يعثر على وظيفة كاتب أو ناسخ في مدينة يونانية.

شعر بلمسة. استدار ورأى الصغير يحمل آنية صغيرة.

"وجدتها في بيت"، قال الفتى، ومدها له

كانت مترعة بالماء. شربها إيليا حتى الثمالة.

- كل شيئاً ما، قال. أنت تعمل، لا بد من مكافأتك."

لأول مرة منذ ليلة الغزو، بانت بسمة على شفتي الغلام، الذي عاجل نحو المكان الذي تركت فيه المرأة الفواكه والطحين.

عاد إيليا إلى العمل، ولج البيوت المدمرة، أبعد الأنقاض، حمل الجثث وأخذها إلى العرمة التي كدست في الساحة العامة. كان الضماد الذي ربطه الراعي في ذراعه وقع. إنما لا بأس، يجب أن يثبت لنفسه أنه جدير بتحقيق ملاءته.

والشيخ، الذي كان الآن يجمع الأقذار المنتشرة في الساح، محق، فبعد برهة، يعود الأعداء، ليجنوا ثماراً لم يزرعوها. كان إيليا يترك العمل للسفاحين الذين قتلوا المرأة الوحيدة التي أحبها في حياته، لأن الآشوريين، المؤمنين بالخرافة، سيعيدون بناء أكبر كما كانت كيفما كان الأمر. فحسب معتقداتهم، الآلهة رتبوا ونظموا المدن حسب نظام محدد بدقة، تناغماً مع الوديان، الحيوانات، الأنهار والبحار. في كل منها خصصوا مكاناً مقدساً يرتاحون فيه في أثناء رحلتهم الطويلة عبر العالم. وعندما تدمر إحدى المدن، يتعرض الوضع إلى خطر داهم هو احتمال سقوط السماء إلى الأرض.

تحكي الخرافة أن مؤسس أكبر، القادم من الشمال، مر من هنا، منذ قرون. قرر أن ينام في الساح، ولكي يميز المكان الذي ترك فيه حاجاته، غرس عصا خشبية في التراب. وفي صباح الغد، لم يستطع نزعها، ففهم إرادة الكون. وضع حجراً في المكان الذي حدثت فيه المعجزة وكشف نبعاً ليس بعيداً. شيئاً فشيئاً، حلّت القبائل قرب الحجر والبئر: وولدت أكبر.

كان الحاكم قد أوضح لإيليا مرة أن كل مدينة، حسب التراث الفينيقي، كانت النقطة الثالثة، عنصر الوصل بين إرادة السماء وإرادة الأرض. يعمل الكون على تحول البذار إلى

نبتات، والتربة تفسح المجال للنمو، يحصد الناس الحبوب ويحملونها إلى المدينة، حيث يوقفونها قرابين للآلهة قبل أن يتركوها فوق الجبال المقدسة. رغم أنه لم يسافر كثيراً، كان إيليا يعرف أن العديد من الأمم في العالم يؤمنون بهذه الرؤيا.

كان الآشوريون يخافون من نقص الغذاء عند آلهة الجبل الخامس، وما كانوا يودون خلخلة توازن الكون.

"لمَ أفكر بهذا إن كان هذا النضال بين إرادتي وإرادة السيد الذي تركني وحيداً وقد وصل ارتباكي إلى الأوج؟"

فقد عاد إليه انفعال البارحة لما تحدى الله. لقد نسي عنصراً هاماً، وبحث طويلاً في ذاكرته ولم يتوصل إلى تذكره.

مر يوم آخر. كانواقد جمعوا أغلب الجثث، حينما اقتربت امرأة غريبة، وقالت: "ما عندي شيء للأكل".

ـ ونحن كذلك، رد إيليا. البارحة واليوم اقتسمنا حصة شخص واحد على ثلاثة أشخاص. اذهبي وابحثي أين يمكن نمو عناصر تؤكل وأعلميني.

ـ كيف أعرف هذا؟

ـ اسألي الفتيان، يعرفون كل شيء.

مذ أن وفر له الماء، بدا الفتى أنه استعاد تذوق طعم الحياة. كان إيليا قد أرسله ليجمع الأقذار وفتات الأنقاض مع

الشيوخ، لكنه لم ينجح بتشغيله وقتاً كافياً: هو كان يلعب مع الغلمان في إحدى زوايا الباحة.

"هذا أحسن. أمامه وقت طويل ليعرق، لما يرشد"لكنه لم يأسف لإبقائه جائعاً ليلة كاملة، بذريعة دفعه إلى العمل، لو عامله كيتيم مملق، ضحية خبث المحاربين الآشوريين، لن يتخلص من الانقباض الذي عاشه يوم عادا إلى المدينة. ومنذئذ نوى تركه عدة أيام يعثر وحده على أجوبة لكل ما مرّ.

ـ كيف يعرف الفتيان الصغار شيئاً ما؟ ألحت المرأة التي طلبت منه الطعام.

ـ اعرفي أنت.

المرأة والشيخ اللذان يساعدان إيليا رأوا المرأة تتحدث مع صغار يلعبون في الشارع. قالا لها بعض الكلم، استدارت، بسمت وتوارت في زاوية الباحة.

ـ كيف كشفتَ أن الصغار يعرفون؟ سأل الشيخ.

ـ لأني كنت غلاماً، وأعرف أن الفتيان لا ماض لهم، أجاب، متذكراً الحديث الذي دار مع الراعي. لقد ارتعبوا ليلة الغزو لكنهم لم يبالوا بعدئذ، لقد تحولت المدينة إلى حديقة شاسعة يغدون إليها ويرجعون دون مبالاة. عاجلاً أو آجلاً، يجب أن يجدوا غذاء خزنه سكان أكبر ليعينهم على الحصار.

"يقدر الطفل أن يعلم الكبار ثلاثة أشياء: السرور من دون سبب، الاهتمام أبداً بشيء ما، و طلب ـ بإلحاح عنيد ـ كل ما يرغب. كرمى لهذا الفتى عدت إلى أكبر".



بعد ظهر ذلك اليوم، ساهم شيوخ ونساء آخرون في جمع الجثث. كان الأطفال يبعدون الجوارح ويجلبون قطع الخشب والقماش. لما هبط الليل، وضع إيليا النار في كديس الأموات. كان من بقي حياً في أكبر يراقب بصمت الدخان الصاعد نحو السماء.

لدى إنجاز مهمته، سقط إيليا منهكاً. لكنه قبل أن ينام، كابد مجدداً الإحساس الذي أتاه في ذلك الصباح: كان ثمة عنصر رئيس يجاهد يائساً العودة إلى ذاكرته.

لم يكن شيئاً هاماً مما تعلمه في أثناء وجوده في أكبر، لكن قصة عتيقة تبدو كما لو أنها ستعطي مغزى لكل ما حدث.

في تلك الليلة، صارع رجل مع يعقوب حتى سطوع الشمس. لدى عجزه عن حمله على ظهره، قال له: "دعني أرحل".

رد يعقوب: "لن أدعك، حتى تباركني".

آنئذ أجابه الرجل: "كأمير، جالدت مع الله، ما اسمك؟"

ذكر يعقوب اسمه، ورد الرجل: "من الآن، تسمى إسرائيل".
استيقظ إيليا ونهض فجأة وحدق بعنف
هي ذي القصة الغائبة!
بعد ردح من الزمن، يوم بلغ البطريرك مخيمه، دخل أحدهم خيمته في عتمة الليل وصارعه حتى نهوض الشمس. قبل يعقوب المعركة، رغم معرفته أن خصمه هو السيد. في الفجر، لم يكن قد انهزم ولم تنتهي المجابهة إلا بعد قبول الله مباركته.
كانت القصة تنتقل من جيل إلى جيل لئلا ينس أحد أبداً: أحياناً يكون ضرورياً مناضلة الله. وكل كائن بشري يرى، في لحظة محددة، تراجيديا تجتاز حياته، قد يكون هذا تدمير مدينة، موت ابن، تهمة دونما برهان، مرض يركن صاحبه إلى الزاوية. في هذه اللحظة، يضعه الله في تحدي مجابهته والجواب على سؤاله: "لم تتشبث بحياة قصيرة ومعفرة بالأوجاع؟ ما معنى نضالك؟"
الرجل الذي لا يعرف الجواب يذعن ويستكين. لكن ذاك الذي يجد المغزى في أن الله كان غير عادل، ويتصدى للقدر. آنئذ تفد نار أخرى من السماء، ليست هي النار التي تقتل، بل تلك التي تدمر الأسوار القديمة وتعطي كل كائن بشري إمكاناتها القابلة للتحقيق. لا يسمح الجبناء لهذه الجمرة أن

تحرق قلوبهم ـ كل ما يرغبون، عودة الوضع بسرعة إلى ما كان عليه، لكي يستطيعوا الاستمرار في الحياة وأن يفكروا في الأمر كما اعتادوا. بالمقابل، يحرق الشجعان كل قديم، كل ما أفل نجمه، وحتى لو كان الثمن معاناة داخلية مرعبة، يتركون كل شيء، حتى الله، ويتقدمون.
"الشجعان أبداً عنيدون".

من السماء، بسم السيد لما يرى: هو ذا ما يشاء، أن يأخذ كل من بيده مسؤولية حياته. أخيراً، أعطى أولاده أثمن الهبات وأبقاها: القدرة على الاختيار وتقرير شؤونهم.

فقط الرجال والنساء مالكو النار المقدسة لديهم الشجاعة على مواجهة الله. وهم فقط يعرفون سبيل العودة إلى حبه، لأنهم يعون بعد لأي أن الملمة ليست عقوبة، بل هي تحدي.

أعاد إيليا النظر في كل أمر اجترحه، مذّما غادر ورشة النجارة، قبل الرسالة دونما نقاش ـ حتى إن كانت حكيمة ـ ورأى أنها كانت هكذا، لم تتيسر له فرصة تأمّل ما مرّ على الدروب التي رفض عبورها خوفاً من أن يخسر إيمانه، تضحيته وإرادته. و تنبه لخطر اتباع طريق الناس العاديين ـ ربما انتهى إلى اعتيادها وأحبّ ما كان يرى. لم يعِ أنه هو أيضاً ككل الناس، كان ينتظر الملائكة وكان يتلقى من حين إلى آخر أوامر من الله، كان شديد القناعة بمعرفة ما

كان يريد سلوكه بنفس طريقة أولئك الذين لم يأخذوا أبداً قراراً حاسماً في حياتهم.

تخلص من الشك، الهزيمة، ومن لحظات التردد. لكن السيد كان كريماً، وقاده إلى لجة المحتم ليدله إلى أن الإنسان بحاجة أن ينتقي ـ لا أن يقبل ـ قدره.

قبل أعوام، في ليل يشبه ليله هذا لم يترك يعقوب الله يذهب قبل أن يباركه. آنئذ سأله السيد: "ما اسمك؟"

هذه هي القضية: وجود اسم. ما أن أجاب يعقوب، حتى عمده الله باسم إسرائيل. لكل منا اسمه منذ المهد، إنما هو ملتزم أن يعمد حياته بالكلمة التي اختار ليعطيها معنى.

"أنا أكبر"، قالت، وهدمت المدينة وضاعت المرأة الحبيبة لكي يفهم إيليا أنه لا بد من وجود اسم. وفي اللحظة ذاتها، أعطى حياته اسم تحرر.



نهض وتأمل الباحة المبسوطة أمامه: كان الدخان ما يزال يصعد من رفات أولئك الذين فقدوا حياتهم. بحرق هذه الجثث، تحدى عادة عتيقة في بلاده تقول أنه لا بد من دفن الأموات حسب الطقوس. ناضل ضد الله والتقليد بقرار الحرق، لكنه شعر بأنه لم يخطئ، فلا بد من حل جديد

لمشكلة جديدة. كان الله حاسماً برحمته، وجازماً بقسوته تجاه من لا يملك الجرأة.

شمل الباحة بنظرة أخرى: كان بعض من بقي حياً ما زال لم يذهب إلى النوم وكانت عيونهم شاخصة إلى اللهب، كما لو أن هذه النار تلتهم ذكرياتهم، ماضيهم، والمائتي عام من السلم والخمول في أكبر. زمن الخوف والتريث ولى: لم يبق من الآن وصاعداً سوى إعادة التعمير أو الهزيمة.

مثل إيليا، هم أيضاً يقدرون أن يختاروا اسماً، مصالحة، حكمة، عشيقاً، حاجاً، ثمة خيارات جمة بعدد نجوم السماء، لكن كل منّا يجب أن يعطي حياته اسماً.

"جاهدت ضدك، يا سيد، دونما خجل ولا وجل. هكذا، كشفت أني على دربي الذي أرغب فيه، ليس لأن هذا فرضه علي أهلي، وتقاليد بلادي أو أنت ذاته حتى".

"إليك، يا سيد، أود أن أعود في هذه اللحظة. أريد أن أقدم بين يديك كل ما أقوى عليه، وليس جبن ذاك الذي لم يعرف أن يختار درباً آخر. على هذا، لكي تعهد لي برسالتك البالغة الأهمية، أرى لزاماً علي أن أتابع هذه المعركة ضدك، حتى تباركني"

إن إعادة تشييد أكبر. هو ما يعتبره إيليا تحدياً لله، لذا كانت، بالفعل، لقاءاته المتكررة معه.

ظهرت المرأة التي طلبت الغذاء في صباح اليوم التالي. جاءت برفقة غيرها من النساء.

ـ لقد اكتشفنا عدة مخازن، قالت. لقد مات عدد ضخم من الناس وهرب الكثر مع الحاكم، ونحن عثرنا على احتياط يكفي لعام كامل.

ـ هاتوا كبار السن للإشراف على توزيع المدخرات، أمر إيليا. هم أصحاب خبرة بالتنظيم.

ـ الشيوخ لا رغبة لديهم بالعيش.

ـ التمسي منهم الحضور بأي سبيل.

لما استعدت المرأة للمغادرة استوقفها إيليا:

ـ أجديرة أنت بكتابة رسائل؟

ـ لا

ـ أنا تعلمت ذلك، وأود أن أعلمك. سيفيدك هذا في مساعدتي في إدارة المدينة.

ـ لكن الآشوريين قادمون.

ـ حينما يأتون، سيكونون بحاجة لنا لترتيب شؤون المدينة.

ـ لمَ نقدم هذا للأعداء؟

ـ اعمل هذا لكي يعطي كل منا اسماً لحياته. ليس العدو سوى ذريعة لامتحان قوتنا.

أتى كبار السن، كما توقع.

قال لهم إيليا :

ـ أكبر بحاجة لعونكم، وأمام هذا لن نؤمن لكم كرامة الشيوخ، نحن بحاجة للشباب الذي تمتعتم به سابقاً وفقدتموه.

ــ كيف لنا أن نستعيد الشباب والفتوة، ألا ترون. توارى شبابنا مع التجاعيد في الوجه و زوال التعلق بالوهم.

ـ ليس هذا صحيحاً. ما كان عندكم طموح أبداً أو أوهام، وهذا هو سبب اختفاء الشباب. أزفت ساعة رجوعه، لأن حلمنا مشترك: تعمير أكبر.

ـ كيف نقدر أن نحقق شيئاً من المستحيل.

ـ بالحماس والحمية والإقدام.

ــ العيون التي غشاها الحزن والقنوط، تود أن تبصر ثانية. لستم السكان العاجزين الذين سيشهدون المحاكمات بحثاً عن موضوع يناقشونه بعد الظهر، بل أنتم عندكم الآن رسالة هامة، لقد أصبحتم ضروريين.

فرز أقواهم المواد النافعة من البيوت التي تضررت كثيراً ويمكن استخدامها لإعادة تعمير البيوت التي ما تزال واقفة. وآزر المعمرون بعضهم في جمع رماد الجثث المحروقة و نثره في الحقول ، من أجل تذكر موتى المدينة عند حلول الحصاد والقطاف القادم. وكلّف آخرون بفرز الحبوب المخزنة في

المدينة بشكل عشوائي، لصنع الخبز و العمل في متح الماء من الآبار.

بعد ليلتين، جمع إيليا كل الناس في الميدان العام، الذي نظف الآن من أكبر كمّ من الأنقاض. أوقدت المشاعل وأنشأ يقول:

ـ لا خيار لنا. يمكن ترك هذا العمل للأجنبي، إنما هذا يعني أننا تخلينا عن الفرصة الوحيدة التي تقدمها لنا التراجيديا: إعادة بناء حياتنا، إن رماد الجثث التي حرقناها سيغذي بعد أيام النباتات التي ستنمو في الربيع. نسي الابن ليلة الغزو، وتحول إلى واحد من الأطفال الذين يطوفون بحرية في الشوارع المدمرة واللعب في ولوج الأمكنة الممنوعة والبيوت التي لم يدخلوها سابقاً. حتى الآن، الأطفال وحدهم هم القادرون على تجاوز الأحداث لأنهم من دون ماضٍ ـ بالنسبة لهم، المهم هو اللحظة الراهنة، إذن، فلنحاول أن نتصرف مثلهم.

قالت امرأة:

ـ أيستطيع الإنسان أن يطفئ من قلبه أثر من يفقد؟

ـ لا. لكنه يقدر أن يعزي نفسه بكسب شيء ما.

التفت إيليا وأشار إلى ذروة الجبل الخامس، المغطى أبداً بالسحاب. بعد أن جعله دمار الأسوار مرئياً من مركز الميدان العام.

ـ أنا أؤمن بسيد واحد، أما أنتم، يخيل لكم أن الآلهة تقطن مطاوي هذا السحاب، في قمة الجبل الخامس. لن أناقش الآن لنعرف إن كان ربي أقوى وأقدر من أربابكم، لست راغباً في إثارة الفوارق بيننا، بل ما بيننا من تشابه. فقد آلفت التراجيديا مشاعرنا في شعور مشترك. اليأس. لم حدث هذا؟ لأننا فكرنا أن لدى كلاً منا جواباً لذاته، وليس لنا أن نقبل أصغر تبدل.

وتابع:

ـ أنتم وأنا نعزى لأمم تجارية، لكننا نعرف أيضاً أننا نسلك كمحاربين، والمحارب يعي دوماً الهدف الذي يستحق أن يصارع من أجله. وهو لا يبدأ القتال مجرداً من الفائدة، ولا يضيع أبداً وقته بالتحريض والإثارة. المحارب الحق يقبل الهزيمة. لا ينظر إليها كحادث تافه، ولا يسعى إلى تحويلها إلى نصر. ألم الخسارة يجعله يتململ، يعاني من صقيع القنوط والعزلة. بمجرد أن يمر عليه كل هذا، يعضّ على جراحه وينطلق من جديد. يعرف المحارب الأصيل أن الحرب مكونة من معارك، ويهب إلى أمام. التراجيديات تتجدد. نقدر أن نكشف العلة، أن نرمي التهمة على الغير,أن نتصور كم تختلف حياتنا من دونها. إنما ليس لكل هذا أي أهمية. فالأحداث المأساوية وقعت، هذه نقطة محورية. منذئذ، علينا

أن نهمل الخوف الذي تبعثه ونبدأ التعمير مجدداً. سيعطي كل منكم من الآن نفسه اسماً جديداً. سيكون اسماً مقدساً، يتحمس لكل ما دفعكم القتال أن تحلموا به. أنا اخترت اسم التحرر.

ظلت الساحة العامة صامتة بعض الوقت. آنئذ، نهضت المرأة التي كانت أول من آزر إيليا، وقالت:

ـ اسمي هو اللقاء.

وأعلن أحد الشيوخ:

ـ اسمي العدالة.

وهتف ابن المرأة التي أحبها إيليا حباً جماً، قال:

ـ اسمي أبجدية.

رهج الناس بالضحك. فعاد الابن إلى مقعده، خجولاً.

ـ كيف يمكن أن يسمى أحد منا أبجدية؟

أردف فتى آخر.

كان بإمكان إيليا أن يتدخل لكن الأفضل أن يتعلم الولد أن يدافع عن نفسه.

ـ لأن هذا ما علمتني إياه أمي، قال الغلام. لأني كلما تأملت الحروف المرسومة، أفكر بها.

هذه المرة، لم يضحك أحد. واحد تلو الآخر، اليتامى، الأرامل وشيوخ أكبر أعلنوا أسماءهم وهويتهم الجديدة. انتهى

الحفل، نصح إيليا كل الناس الإسراع إلى النوم: عليكم المبادرة إلى العمل في الصباح الباكر.

أخذ الصغير من يده وتأمل معه المكان من الباحة حيث نصبت الأقمشة كخيمة.

انطلاقاً من هذه الليلة، جعل يعلمه كتابة بيبلوس.

الأيام صارت أسابيع، وبدلت أكبر محياها. تعلم الطفل بسرعة رسم الأحرف ووصل بدءاً من تلك اللحظة إلى أن يخلق كلمات ذات معنى. فكلفه إيليا أن يكتب على لويحات من الآجر تاريخ إعادة تعمير المدينة.

شويت الآجر في فرن لم يكن معداً مسبقاً لهذا الغرض، الآجر تحول إلى سراميك وبعناية أرشفه زوج من الشيوخ. في أثناء اللقاءات التي كانت تعقد كل مساء، كان إيليا يطلب من الشيوخ أن يتلوا ما رأوه في طفولتهم وسجلوا أكبر عدد ممكن من القصص.

- سنحفظ ذكرى أكبر في صندوق لا تلتهمه النار، قال. في يوم، يعلم أبناؤنا وأحفادنا أن الهزيمة لم تقبل وأننا تجاوزنا ما لا مهرب منه، الحتمي. ليعتبروه مثالاً يحتذى.

في كل الليالي، بعد تدريس الغلام، كان إيليا يطوف في المدينة الخلاء، يسير حتى بداية الدرب المفضي إلى القدس، مفكراً بالذهاب إليها، ثم يرجع.

كان وزر مهمته الباهظ يلزمه التركيز على الحاضر. كان يعلم أن سكان أكبر يعتمدون عليه في أمر إعادة التعمير، خيب ظنهم مرة، يوم أثبت عدم قدرته على منع موت جاسوس، واتقاء الحرب. على هذا، يوفر اللّه دوماً فرصة ثانية لأبنائه، وكان عليه أن يستفيد من هذه السانحة الجديدة. فضلاً عن ذلك، كان يتعلق بالصغير أكثر فأكثر. كان يود أن يعلمه ليس فقط حروف بيبلوس، بل الإيمان بالسيد وبحكمة الجدود وعدلهم.

مع ذلك، لم ينس أن وطنه تحكمه أميرة وإله غريب. فليس ثمة ملائكة تشهر سيوفاً نارية، كان يستطيع السفر عندما يشاء وأن يفعل ما يبدو له جيداً.

في كل الليالي، كان يفكر بالسفر، وفي كل الليالي، كان يرفع يديه إلى السماء ويصلي:

ـ يعقوب جالد ليلاً بطوله وبورك في السحر. جاهدت عكس إرادتك أياماً، أشهراً، وترفض الإصغاء لي. إنما إذا نظرت حولك، تعلم أني في طريقي إلى النصر: أكبر ستنهض من كبوتها، سنرفع الأنقاض ونبني ما حولته أنت بسيوف الآشوريين إلى رماد وغبار. سأناضل معك حتى تباركني، تبارك ثمار عملي. في يوم ما سترد علي.

*

كـان الأولاد والنسـاء يحملـون المـاء إلى الحقـول لمكافحـة الجفاف الذي كان يبدو مقيماً أبداً. في يوم عكست الشمس كل حرارتها، سمع إيليا هذا التعقيب:

"نعمل دونما توقف، لا نفكر بأتعاب ذلك الليل، ونسينا حتى أن الآشوريين عائدون بعد أن ينتهوا من سلب وحرق صور وصيدا، بيبلوس وكل فينيقيا. إن هذا يشد من عزيمتنا.

مع ذلك، لأننا كنّا نركز على إعادة تشييد المدينة، الأمر على حاله، لم نر نتيجة جهودنا"

فكر إيليا برهة بهذا الكلام. طلب مذئذ أن يجتمع في نهاية كل يوم عمل، الناس في أسفل الجبل الخامس ليتأملوا سوية غياب الشمس.

كانوا بعامة متعبين جداً وحتى بمشقة يتبادلون كلمة، لكنهم اكتشفوا مدى أهمية ترك الفكر يتيه دونما هدف، كما الغيوم في السماء. وهكذا، توارت الغصة والشدة من القلب وعثر الجميع على القوة والإلهام الضروريين من أجل الغد.

عند يقظته أعلن إيليا أنه غير ذاهب إلى العمل.

ـ اليوم، في بلدي، يحتفلون بعيد الغفران.

ـ إنك لا تحمل في روحك أي ذنب، قالت المرأة. إنك في سواء السبيل.
ـ لكن التقاليد يجب أن تبقى. وسأحترمها.
ستمتح النسوة الماء إلى الحقول، يعود الشيوخ إلى مهمتهم، بناء الجدران وإعداد الأبواب والنوافذ الخشبية. يؤازر الصغار بقولبة القرميد الفخاري الذي، فيما بعد، سيشوى بالنار.
تأملهم إيليا، بفرح عارم في القلب. ثم غادر أكبر واتجه إلى الوادي.
مشى دونما هدف، تلا الصلوات التي لُقنها في الصغر. لم تكن الشمس قد سطعت بعد، وحيث كان، كان يرى ظل الجبل الخامس السامق يغطي جزءاً من الوادي. بادره إحساس رهيب: سيدوم هذا الجهاد بين إله إسرائيل أي الله الواحد وبين آلهة الفينيقيين أجيالاً وأجيالاً وآلاف السنين.



تذكر أنه صعد في مساء أحد الأيام حتى ذروة الجبل وأنه تحدث مع أحد الملائكة، إنما، مذ أن دمرت أكبر، لم يعد يسمع أبداً أصواتاً تفد من السماء.
قال: "يا سيد، اليوم، هو عيد الغفران، ولائحة الخطايا التي اقترفتها تجاهك طويلة"، وهو يلتفت نحو القدس. قال: "كنت

ضعيفاً، أني نسيت قوتي. كنت رؤوفاً لما اضطررت أن أكون صلباً. لم أختر، خوفاً من اتخاذ قرارات غير حكيمة. تراجعت قبل حلول الوقت الملائم، وجدفت لما كان على أن أشكر. مع هذا، يا سيد، خطاياك تجاهي تشكل أيضاً سبتاً طويلاً. آلمتني أكثر من الضرورة، أخذت من هذا العالم من أحببت. هدمت المدينة التي آوتني، أحبطت مسعاي، جعلتني قسوتك أنسى تقريباً حبي لك. في أثناء كل هذا الوقت، ناضلت إلى جانبك، ولم تقبل وقار معركتي.إن قارنا لائحة خطاياي بلائحة خطاياك، سترى أنك مدين لي. إنما، ما دمنا نحتفل اليوم بعيد الغفران، أسامحك وتسامحني، لكي يتسنى لنا أن نتابع الدرب سوية"

في هذه اللحظة هبت الريح، وأحس أن ملاكه يخاطبه: "خيراً ما فعلت، يا إيليا. الله قبل معركتك"

ذرف الكثير من الدمع. ركع وشم تربة الوادي القاسية.

"شكراً لمجيئك، لأن الشك ما زال يراودني: أليس هذا التصرف خطيئة؟"

يجيب الملاك:

- لما يختلف محارب مع قائده، يهينه؟

- لا، هي ذي الطريقة الوحيدة لتعلم التقنية التي يحتاجها.

ـ إذن تابع ريثما يدعوك السيد ويعيدك إلى إسرائيل، أردف الملاك. قم وتابع. لتبرهن أن نضالك ذو مغزى، لأنك اجتزت تيار الحتمي. كثر الذين يسبحون في هذا التيار ويغرقون، وآخرون يتجهون نحو أمكنة لا مستقبل لهم فيها. أما أنت، جابهت التخطي بكرامة، عرفت كيف توجه منحى مركبك وجالدت لتحول الألم إلى عمل.

قال إيليا:

ـ مؤسف أن تكون كفيفاً. وإلا لرأيت كيف أعاد اليتامى، الأرامل والمسنون تعمير مدينة. قريباً، سيكون كل شيء كما كان.

رد الملاك:

ـ آمل ألا يكون هذابعد لأي، دفعوا غالياً ثمن تبدل حياتهم.

بسم إيليا. الملاك محق.

ـ آمل أن تتصرف كمن قُدم لهم فرصة أخرة: لا تقترف مرتين ذات الخطأ. لا تنس أبداً علة وجودك.

ـ لن أنسى، أجاب، فرحاً بعودة الملاك.

*

لم تعد القوافل تلج طريق الوادي، فقد اضطر الآشوريون إلى تخريب الدروب وتغيير السبل التجارية. في كل يوم، كان

الفتيان يصعدون إلى برج الأسوار الوحيد الذي نجا من الدمار، فكانوا مكلفين بالإبلاغ عن ظهور محاربي العدو.

استعد إيليا لاستقبالهم بكرامة وتسليمهم القيادة. هكذا كان يستطيع أن يغادر. لكنه كان يحس كلما مر يوم أن أكبر تصير جزءاً من حياته. ربما لم تعد مهمته طرد جزابيل من العرش، بل البقاء، مع هؤلاء الناس حتى أجله، لاعباً دوراً متواضعاً في خدمة الآشوري المنتصر. آزر في إعداد المسالك التجارية، تعلم لغة العدو، وفي أوقات الراحة، كان يهتم بالمكتبة التي كانت تتسع وتغتني أكثر فأكثر.

كان الدرس المستفاد، في إحدى ليالي الزمن الهاربة، لإنهاء مدينة, يعني الآن جعلها أروع. كانت أعمال إعادة البناء تتضمن تعريض الشوارع، إقامة أسقف أمتن، ونظام عبقري لجلب المياه من الآبار القائمة في أمكنة قصية. نفسه أيضاً تجددت: ففي كل يوم، كان يُعلم، مسنين، غلماناً، نسواناً، شيئاً جديداً. كانت هذه الشريحة ـ التي لا تستطيع مغادرة أكبر بسبب الاستحالة المطلقة لإمكانية عملها ـ تشكل الآن فريقاً منضبطاً ومسؤولاً.

"لو عرف الحاكم أنهم ما يزالون مفيدين، لابتكر أسلوباً جديداً للدفاع، ولما دمرت أكبر"

فكر إيليا قليلاً وأدرك أنه كان مخطئاً, يجب تدمير أكبر،

لكي يستطيع الجميع أن يوقظوا قوتهم التي كانت مغيبة.



انصرمت شهور، ولم يبد الآشوريون إمارة وجود. كانت أكبر في ذاك الوقت شبه جاهزة ويقدر إيليا أن يفكر بالمستقبل. جمعت النسوة بقايا الألبسة المتناثرة يصنعن منها ألبسة جديدة. أعاد الشيوخ تنظيم المساكن واهتموا بصحة المدينة. كان الصغار يساعدون عندما يستثارون لكنهم، بعامة، يقضون اليوم كله باللعب والصخب: كان اللهو رأس اهتمامات الفتية.

كان إيليا يعيش مع الغلام في بيت صغير حجري، كان أقيم على أرض كانت سابقاً مخزن بضائع وسلع. في كل مساء، كان سكان أكبر يتحلقون حول نار في الساحة العامة الواسعة ويقصون الحكايات التي سمعوها في حياتهم، بمساعدة الغلام، كان يسجل كل شيء على الرقم التي سبق وشووها في الصباح. كانت المكتبة تتضخم بوضوح.

والمرأة التي فقدت ابنها تعلمت حروف بيبلوس. لما عرف إيليا أنها تعرف أن تكتب كلمات وجملاً، كلفها بتعليم الأبجدية لمن بقي من الناس، حتى إذا ما رجع الآشوريون، أمكنهم أن يعملوا مترجمين أو معلمين.

"كـان هـذا بالضـبط مـا أراد أن يتجنبـه الكـاهـن"، قـال بعـد ظهر أحد الأيام الشيخ الذي سمي "محيطا"، لأنه كـان يرغـب في أن تكـون نفسـه واسـعة كـالبحر. "لـتعش كتابـة بيبلـوس وتهدد آلهة الجبل الخامس".

ـ من يقدر أن يتجنب المحتم؟"دحض إيليا الكلام.

كان الناس يعملون في النهار، يشهدون سوية غياب الشمس ويحكون حكايات في المساء.

كان إيليا يفخر بعمله. وكان يتعلق به أكثر فأكثر.



نزل فتى مكلف بالرقابة راكضاً. وقال مضطرباً:

"رأيت غباراً في الأفق. العدو عائد!"

صعد إيليا إلى البرج وتحقق من النبأ. قدّر أنهم واصلون إلى أبواب أكبر في صباح الغد.

بعد الظهر، طلب إلى السكان ألا يشهدوا غياب الشمس بل التواجد في الميدان العام. انتهى يوم العمل. انضم إلى الرعية ولاحظ أن الناس خائفون. قال:

ـ اليوم لن نتلو حكايات من الماضي، ولن نثير مشاريع أكبر. بل سنتحدث عن أنفسنا.

لم ينبس أحد بكلمة.

*

مذ بعض الوقت، لمع القمر بدراً في السماء. تابع إيليا:

- في ذلك اليوم، حدث ما استشعرناه جميعاً، إنما ما لم نكن نريده: دمرت أكبر. لما انسحب الجيش الآشوري، كان خيرة رجالنا قد قتل. رأى الناجون أنه ليس ضرورياً البقاء هنا وقرروا الرحيل. لم يبق سوى العجزة، الأرامل واليتامى، أي من لا خير فيهم.

أنظروا حولكم، الميدان العام في أبهى أوقاته، السكان أصلب، الغذاء وزع، والجميع يتعلم الكتابة المبتكرة في بيبلوس. في مكان ما من المدينة توجد مجموعة من الرقم عليها دونّا تاريخنا، تراثنا، قصصنا، وستتذكر الأجيال القادمة ما فعلنا.

اليوم، علمنا أن العجزة، اليتامى والأرامل رحلوا أيضاً. تركوا مكانهم لشريحة من الشباب من كل الأعمار، عامرين بالحماس والإقدام، أولئك الذين أعطوا حياتهم مغزى.

في كل لحظة من إعادة التعمير، كنا نعرف أن الآشوريين قادمون. كنا نعرف أنهم سيكرهوننا على تسليم مدينتنا، ومعها، جهودنا، عرقنا، فرحتنا برؤيتها أجمل مما كانت.

أضاءت شعلة من النار الدموع التي كانت تسيل على الوجوه. وحتى الصغار، الذين يلعبون عادة في أثناء اللقاءات الليلية، كانوا ينتبهون إلى كلامه. تابع إيليا:

ـ هذا لا يهم. لقد أنجزنا واجبنا تجاه السيد، لأننا رضينا بتحديه وبمجد مصارعته. قبل تلك الليلة، كان يلح إلى جانبنا، قائلاً: "إلى الأمام"إنما لم نصغي له. لماذا؟

لأن كلاً منا قرر مستقبله. فكرت أن أطرد جزابيل من العرش، المرأة التي تدعى الآن هداية كانت تريد أن يكون ابنها بحاراً، الرجل المسمى الآن حكمة كان يرغب ببساطة أن يقضي آخر أيامه يشرب الخمرة في الميدان العام. كنا اعتدنا على السر المقدس للحياة ولم نعد نوليه اهتمامنا.

آنئذ قال السيد: "ألا يريدون التقدم؟ إذن سيبقون في مكانهم طويلاً!"

وهنا، فقط، فهمنا رسالته. استولى فولاذ سيف الآشوريين على شبابنا، واجتاح الجبن رجالنا. أينما كانوا الآن، هم ما زالوا واقفين، وقد ارتضوا لعنة الله.

أما نحن، فقد ناضلنا ضد السيد. كما ناضلنا مع الرجال والنساء الذين أحببناهم طيلة حياتنا، لأن المعركة هي التي باركتنا ومجدتنا ورفعت مقامنا. لقد قبضنا على انتهازية التراجيديا وأتممنا واجبنا تجاهه، فتبين أننا كنا جديرين

بطاعة أمر الانطلاق. حتى في أسوأ الظروف، ذهبنا إلى الأمام.

ثمة لحظات معينة يطلب الله الطاعة. إنما في لحظات أخرى يرغب في اختبار إرادتنا، ويضعنا أمام تحدي فهم حبه. التقطنا هذه الإرادة لما انهارت أسوار أكبر: فتحت أفقنا وتركت كلاً منا يرى ما هو قيم وخليق بالنضال لأجله. عزفنا عن التفكير بالحياة وقررنا أن نحياها. كانت الحصيلة طيبة.

لاحظ إيليا أن العيون راحت تتألق. وأن الرجال فهموا.

ـ غداً سأحرر أكبر دونما نضال، أنا حر أرحل متى أشاء، لأني أكملت ما توقع الله مني. مع ذلك، دمي، عرقي وولائي وحبي الوحيد يتشبث في تربة هذه المدينة، وقررت أن أقضي أيامي الأخيرة هنا، لأحول دون تدميرها مرة أخرى. ليأخذ كل منا القرار الذي يشاء، لكن لا تنسوا أبداً: أنتم خير مما تظنون.

لقد قبضتم على الفرصة المواتية التي وهبتكم إياها التراجيديا، إنما لم يكن الجميع جديرين.

نهض إيليا وأعلن أن الاجتماع أغلق. أخطر الفتى أنه سيعود متأخراً ونصحه أن ينام ولا ينتظره.

*

ذهب حتى المعبد، الأثر الوحيد الذي نجا من التدمير، ما كانوا بحاجة لإعادة تشييده، رغم أن نصب الآلهة حملها معهم الآشوريون. احتراماً، لمس الصخرة التي توسم المقام الذي، حسب الرواية الموروثة، غرز فيه أحد الجدود عصا ولم يستطع انتزاعها.

ظن أن، في بلده، بنت جزابيل كهذا المعبد وأن لفيفاً من شعبه كان يسجد لتمجيد بعل وقديسيه. من جديد. غزا الحدس نفسه: الحرب بين سيد إسرائيل وآلهة الفينيقيين ستدوم طويلاً، أبعد من مدى تصوره. وكما جاء في إحدى الرؤى، لمح النجوم التي تتقاطع مع الشمس وتنشر في البلدين الدمار والموت. كان رجال يمتطون مطايا من فولاذ ويتبارزون في وسط الغيوم.

"ليس هذا ما يجب أن تراه الآن، لأن الساعة لم تأت بعد، قال له ملاكه. تطلع من النافذة"

أطاع إيليا، كان القمر بدراً ينير البيوت والشوارع في أكبر، ورغم تأخر الوقت، كان يقدر أن يلتقط محادثات وضحك السكان. رغم عودة الآشوريين، كان هذا الشعب راغباً في الحياة، وكان متأهباً لمواجهة مرحلة جديدة من وجوده.

آنئذ خطر له طيف وعرف أنه طيف المرأة التي أحبها حتى الوله والتي تمشي الآن بعجب وكبرياء في المدينة. ابتسم وشعر بأنها تداعب وجهه.

"أنا فخورة، تصورها تقول. أكبر ما تزال فعلاً رائعة"

تمنى أن يبكي لكنه تذكر الصغير الذي ما ذرف دمعة واحدة أسى على أمه. أمسك دموعه وتذكر أحلى الأوقات التي عاشاها سوية ـ منذ اللقاء عند أبواب المدينة حتى لحظة كتابتها كلمة "حب"على لوحة آجر. تخيل ثوبها، شعرها، رأس أنفها.

"قلتِ لي إنك أكبر. حينئذ اعتنيت بك، داويت جراحك، والآن أعيدك إلى الحياة. كوني سعيدة مع رفاقك الجدد. و أود أن أقول لك شيئاً: أنا أيضاً كنت أكبر، ولم أكن أعرف هذا الأمر"

تأكد أنها ضحكت.

"ريح الصحراء، منذ وقت بعيد، محى خطانا عن الرمل. إنما، في كل لحظة من حياتي، أفكر بما مرّ علي، ما تزالين تمشين في أحلامي و واقعي. شكراً لك لمصالبتك دربي"

استلقى هناك، داخل المعبد، شاعراً أن المرأة كانت تعبث بشعره.



رأى رئيس التجار لفيفاً من الناس بالأسمال في وسط الطريق. ظن أنهم قطاع طرق وطلب من كل أعضاء القافلة إعداد أسلحتهم.

سأل:

ـ من أنتم؟

ـ نحن شعب أكبر، أجاب أحد الملتحين، بعينين تبرقان. بدا أن سيد القافلة يتكلم بلكنة أجنبية.

ـ أكبر مدمرة. نحن مكلفون من حكومة صور وصيدا التموضع قرب بئرها، لكي يسهل على القوافل النفوذ إلى الوادي. الاتصالات مع ما بقي من البلاد لا يمكن أن تبقى مقطوعة إلى ما لا نهاية.

ـ أكبر ما تزال في الوجود، أردف الرجل. أين هم الآشوريون؟

ـ العالم قاطبة يعلم أين هم، رد مبتسماً سيد القافلة. لقد أخصبوا تربتنا ومنذ وقت مديد وهم يغذون طيورنا وحيواناتنا الجارحة.

ـ لكن جيشهم كان جيشاً غفيراً وصنديداً.

ـ لم يكن لهذا الجيش أي خطر، إن عُرف موعد هجومه. أخطرتنا أكبر أنهم يقتربون وقد نظمت صور وصيدا كميناً على الطرف الآخر للوادي. والذين لم يموتوا بيعوا كالعبيد على يد بحارتنا.

صفّق الناس البسطاء وتعانقوا، باكين ضاحكين في وقت واحد.

- من أنتم؟ ردد التاجر. من أنت؟ سأل مشيراً إلى الشيخ.

- نحن محاربو أكبر الشباب، أجابه.

بدأ موسم الحصاد الثالث، وكان إيليا آنئذ حاكم أكبر. واجه في البداية مقاومة شرسة ــ أراد الحاكم السابق أن يستعيد سلطته، كما تأمر التقاليد. لكن سكان المدينة رفضوا استقباله وهددوا لعدة أيام بتسميم ماء البئر. تخلت السلطة الفينيقية أخيراً عن طلباتها ـ في نهاية الحساب، لم تكن أكبر كبيرة الأهمية، سوى بالماء الذي تقدمه للمسافرين، وحكومة إسرائيل كانت في يد أميرة صور. بتسليم السلطة لإسرائيلي، استطاع الفينيقيون إقامة تحالف تجاري مستقر.

ذاع الخبر في الإقليم، حملته قوافل التجار التي عادت تتمم دربها. كانت قلة من إسرائيل ترى إيليا أخطر الخونة، لكن جزابيل كلفت أن تنهي المقاومة في الوقت المناسب، وعاد السلام إلى الإقليم. كانت الأميرة راضية لأن أحد أخطر خصومها قد صار حليفاً لها.



انتشرت مظاهر غزو آشوري جديد وقد أعيد ترميم أسوار أكبر.

وأنجز مشروع نظام دفاع جديد، مع كوكبة حرس وحاميات دفاع تمركزت بين صور وأكبر، بهذه الطريقة، إن حوصرت إحدى المدن، تقدر مدينة أخرى أن تجهز قوات أرضية وتؤمن تموينها بطريق البحر.

ازدهرت المنطقة كما تشهد العين المجردة: أقام الحاكم الإسرائيلي الجديد رقابة محكمة حاسمة على المكوس والبضائع، مبنية على الكتابة. كان شيوخ أكبر يهتمون بكل أمر، يستخدمون التقنيات الجديدة ويجدون حلولاً للإشكالات التي يفرزها الواقع.

قسمت النسوة وقتهن بين العمل والحياكة في أثناء عزلة المدينة، لتصليح ما تبقى عندهن من الأقمشة، اضطررن لابتكار أشكال جديدة للتطريز والتوشية، عندما وصلت طلائع التجار، أعجبت بالرسوم وقدمت العديد من الطلبات والتوصيات.

كان الصغار قد تعلموا كتابة بيبلوس، وكان إيليا واثقاً أنها ستفيدهم في يوم ما.

كما الأمر دوماً قبل موسم الحصاد والقطاف، كان يتجول في الريف ويشكر للسيد بركاته الغزيرة بعد ظهر ذلك اليوم

رأى الناس يحملون السلال مترعة بالحبوب، والصغار يلعبون حولهم. أومأ إليهم وأجابوه.

بابتسام على الثغر، اتجه نحو الصخرة التي، قبل مدة طويلة، تلقى منها رقيماً فخارياً يحمل كلمة "حب". كان يأتي كل يوم يزور هذا المقام، ليشهد غياب الشمس ويتذكر كل لحظة قضياها سوية.



وجهت كلمة السيد إلى إيليا، في العام الثالث:

"اذهب أثبت وجودك أمام آشاب، سأنزل المطر على مساحة من الأرض"

من الصخرة التي كان جالساً فوقها، رأى إيليا العالم يرتجف حوله. اسودت السماء خلال لحظة، وبعيد هذا عادت الشمس وتألقت على الفور.

رأى النور. انتصب أمامه ملاك السيد.

سأل إيليا، خائفاً:

ـ ماذا حدث؟ هل سامح الله إسرائيل؟

أجاب الملاك:

ـ لا. يريد أن تعود أنت لتحرر شعبك. معركتك معه انتهت، والآن، باركك. أجاز لك اتباع عمله في هذه الدنيا.

كان إيليا منذهلاً.

ـ الآن، تماماً حينما وجد قلبي الراحة والطمأنينة؟

ـ تذكّرْ الدرس الذي تلاه عليك مرة. وتذكّرْ الكلمات التي قالها السيد لموسى:

"تذكر الدرب الذي قادك عليه السيد، ليذلك، ليمتحنك، ليعرف ما في قلبك. لما ستأكل حتى الشبع، لما تبني بيوتاً جميلة لتقطن فيها، عندما تكاثرت دوابك وقطيعك، احذر أن تتعجرف وتنسى السيد إلهك"

التفت إيليا إلى الملاك، وسأله:

ـ وأكبر؟

ـ تقدر أن تعيش من دونك، لأنك تركت وريثاً. ستبقى سنين عديدة.

وتوارى ملاك السيد.

وصل إيليا والصغير إلى أسفل الجبل الخامس. لقد نبت العوسج بين حجارة المعابد: منذ موت الكاهن الكبير، لم يطأ هذه الأرض أحد.

ـ سنصعد. قال.

ـ لكن هذا ممنوع.

ـ نعم، هذا ممنوع. لكنه ليس شديد الخطورة.

أخذه من يده، وبدأ ا الصعود باتجاه القمة. كانا يتوقفان من حين إلى حين وينظران إلى الوادي في الأسفل، كان الجفاف

يوسم المنظر، وعدا الحقول المحروثة حول أكبر، كان الباقي يبدو صحراء أقسى من أراضي مصر.

ـ سمعت أصدقائي يقولون أن الآشوريين سيعودون، قال الغلام.

ـ ربما لكن ما صنعناه كان يستحق الجهد، هذه هي الطريقة التي اختارها السيد لنتعلم منها.

ـ أنا لا أعرف إن كان السيد عانى كثيراً من أجلنا، لاحظ الفتى. وهل كان مضطراً لكل هذه القسوة.

ـ لقد جرب وسائل أخرى، حتى اكتشف أننا لا نصغي له. كنا ألفنا حياتنا ولم نعد نقرأ أقواله.

ـ أين كتبت أقواله؟

ـ في العالم حولك. يكفي الانتباه إلى ما يحدث في حياتك، وستكتشف أين، في كل لحظة، يخفي كلامه و إرادته. حاول إنجاز ما يطلبُ منك: هذا هو المسوغ الوحيد لوجودك في هذا العالم.

ـ إن اكتشفتُها، سأكتبُها على رقم آجرية.

ـ افعل هذا. إنما اكتبها في قلبك، هنا لا يمكن أن تحرق أو تتلف، وستحملها حيثما ذهبت.

مشيا أيضاً بعض الوقت. كانت الغيوم قريبة جداً.

ـ لا أريد أن أدخل، قال الصغير مشيراً بإصبعه.

ـ لن تسبب لك أي أذى: ليست هذه سوى غيوم. تعال معي.

أخذه من يده، وصعدا رويداً رويداً، دخلا في الضباب، التصق الصغير بالكبير دونما كلمة، حتى إذا، من وقت إلى آخر، كان إيليا يحاول خوض حديث. مشيا بين الصخور العارية في القمة.

"لنعد"، التمس الطفل.

قرر إيليا ألا يلح، فقد عانى الفتى كثيراً من العقبات في أثناء عمره الصغير وشعر بالخوف. نفذ له طلبه، خرجا من السحاب ومن جديد ميزا الوادي في الأسفل.

ـ في المستقبل، فتش في مكتبة أكبر فيما تركته لك من كتب، عن كتاب تركته لك بعنوان (الوجيز لمن يحارب من أجل النور).

ـ أنا محارب مستنير، أردف الغلام.

ـ أتعرف اسمي؟ سأل إيليا.

ـ التحرر، أجاب الصغير.

ـ اجلس هنا بجانبي، قال إيليا مشيراً إلى صخرة. يستحيل علي نسيان اسمي. فعلي أن أتابع رسالتي، حتى إذا، في هذه اللحظة، بقي كل ما أرغب فيه معك. فمن أجل هذا عُمرت أكبر ثانية، لإعلامنا أن التقدم واجب، مهما بدا الأمر صعباً.

ـ أنت ذاهب.

ـ كيف عرفت؟ سأل مباغتاً.

ـ كتبت هذا على رقيم، البارحة مساءً. قال لي كائن ما، ربما كانت أمي، أو بالأصح ملاكاً. لكني أحسسته في قلبي.

داعب إيليا رأس الولد.

ـ عرفت أن تقرأ إرادة الله، قال، فرحاً. الآن عندي ما أوضحه لك.

ـ ما قرأت، كان هو الحزن في عينيك. أنا لم أردّ شراً، بعض أصدقائي لاحظوا هذا أيضاً.

ـ هذا الأسى الذي قرأته في عيني هو جزء من قصتي. إنما جزء صغير، لن يستمر سوى أيام. غداً، لما أتجه إلى القدس، سيفقد قوته، وشيئاً فشيئاً يتوارى. المآسي لا تدوم إلى الأبد. ما دمنا نمشي نحو ما أردناه ورغبنا فيه.

ـ ألا بدّ من المغادرة؟

ـ يجب دوماً أن نعرف متى تنتهي مرحلة من الحياة. إن أصريت على البقاء هنا بعد الوقت الضروري، تخسر الفرحة ومعنى الراحة. وتتعرض لاستدعاء الله لك.

ـ السيد قاس.

ـ فقط مع مريديه.

*

حدق إيليا إلى أسفل أكبر. نعم، يريد الله أحياناً أن يظهر قسوته، إنما ليس أكثر مما يحتمل أحدنا أبداً. كان الصغير يجهل أن إيليا استقبل ملاك السيد حيث كانا جالسين وأعلمه كيف أعاده من بين الأموات.

ـ سأخسرك؟ سأل.

ـ قلت لي إن الحزن يتوارى إن نحن تقدمنا، أجاب الغلام. بقي أمامنا عمل كثير لجعل أكبر أكثر روعة مما تستحق أمي. وتسرح مبتهجة في شوارعها.

ـ عد إلى هنا لما تحتاجني. وانظر باتجاه القدس سأكون فيها، باحثاً عن مغزى اسمي، التحرر. قلبانا أليفان أبداً.

ـ لهذا أخذتني إلى ذروة الجبل الخامس؟ أليتسنى لي أن أرى إسرائيل؟

ـ لترى الوادي، المدينة، الجبال الأخرى، الصخور والغيوم. فقد ألف السيد أن يأمر أنبياءه المجيء إلى الجبال ليتحدثوا معه. ولقد تساءلت مراراً. والآن أفهم الجواب: من القمة نقدر أن نرى كل شيء صغيراً. بحيث تفقد أمجادنا ومآسينا أهميتها. وكل ما ربحناه أو خسرناه يبقى هناك تحت. من أعلى الجبل، تقدر أن ترى مدى سعة العالم وامتداد الأفق.

تأمل الفتى حوله: من أعلى الجبل الخامس، تشمم رائحة البحر الذي يغسل شواطئ صور. سمع حفيف ريح الصحراء القادم من مصر.

ـ في يوم ما، سأحكم أكبر، قال لإيليا. أعرف ما هو العظيم، أعرف كل ركن و زاوية في المدينة. وأعرف ما يجب تحويله.

ـ إذن، حوله. لا تترك الأمور تجمد.

ـ ألا يقدر الله أن يختار خير طريقة ليدلنا إلى كل هذا؟ في لحظة خاطفة، يخيل لي أنه شرير.

ظل إيليا ساكتاً. تذكر حديثاً له، منذ سنين، مع نبي لاوي، بينما كانا ينتظران وصول جنود جزابيل للقضاء عليهما.

ـ أيمكن أن يكون الله شريراً؟ ألحّ الصغير.

ـ الله كلي القدرة، أجاب إيليا. قادر على كل شيء، لا شيء محرم عليه، وإلا، هذا يعني أن ثمة أحداً أقدر وأعظم يمنعه من فعل بعض الأشياء. في هذه الحال، أفضل عبادة وتخليد ذاك الأحد الأقدر.

سكت لحظات، لكي يستوعب الغلام جيداً هذه الأقوال. ثم أردف:

ـ مع ذلك، بسلطته اللانهائية، اختار أن يفعل الخير فقط. وإذا وصلنا إلى نهاية قصتنا، سنرى أن الخير في أحيان كثيرة

يظهر بمظهر الشر لكنه يظل هو الخير ويشكل جزءاً من الخطة التي وضعها للبشرية.

أخذ الصغير من يده وعادا صامتين.



في تلك الليلة نام الولد ملتصقاً به. وما أن بزغ النهار، حتى أبعده إيليا عن صدره بتؤدة لئلا يوقظه، ثم لبس جلبابه الوحيد وخرج. على الدرب، التقط قطعة خشب وجعلها عصا. نوى ألا يفارقها: فهذه ذكرى من معركته مع اللّه، من دمار وإعادة تعمير أكبر.

من دون أن ينظر إلى الوراء، توجه إلى إسرائيل.

خاتمـــة

....

بعد خمس سنين، دخلت آشور البلاد ثانية، هذه المرة بجيش أكثر حرفية وقادة أكثر مسؤولية وكفاءة. سقطت فينيقيا كلها تحت سيطرة المنتصر الأجنبي، عدا صور وسرابتا، التي يسميها سكانها أكبر.

صار الصغير كبيراً، صار رجلاً، حكم المدينة واعتبر حكيماً حليماً لدى معاصريه. مات مسناً، محاطاً بكائنات يحبها, وقائلاً أبداً أن "عليه أن يحافظ على المدينة بهية وقوية، لأن أمه ما تزال تسرح في تلك الشوارع".

بفضل نظام دفاعي متطور. لم تحتل صور وسرابتا على يد الملك الآشوري سنحريب إلا في العام ٧٠١ قبل المسيح، تقريباً مائة وستين سنة بعد الأحداث الواردة في هذا الكتاب.

لكن المدن الفينيقية لم تستعيد دورها، تعرضت مذئذ إلى غزوات متتالية ـ على يد البابليين ، الفرس، المقدونيين، اليونان، وأخيراً الرومان. مع ذلك، ما تزال موجودة حتى أيامنا، لأن السيد، حسب الرواية القديمة، لم يختر أبداً بالصدفة الأمكنة التي كان يرغب في أن يراها مسكونة.

كانت صور، صيدا وبيبلوس جزءاً من لبنـان، الـذي هـو اليـوم ساح قتال.

رجـع إيليـا إلى إسـرائيل وجمـع الأنبيـاء فـوق جبـل الكـرمـل. وهنا، طلب منهم أن يفترقوا إلى لفيفين: مـن يعبـد بعـل، ومـن يؤمن بالسيد. وحسب تعليمـات المـلاك، قـدم عجـلاً خصياً إلى اللفيـف الأول وألـزمهم أن يلتمسـوا بصـوت عـال إلهـم أن يقبـل الضحية. كما تقص التوراة.

عنـد الظُهـر، سـخر إيليـا مـنهم وقـال: "ارفعـوا الصـوت، هـذا إلهكم ربما كان يتأمل، أو على سفر، أو نائم"

صـرخوا أعلـى، و حسـب عـاداتهم، جرّحـوا وجـوههم بالسكاكين والحراب، إنما دون نتيجة، ولا أي رد فعل.

آنئذ قبض إيليا على الحيوان وقدمه حسب تعليمات المـلاك إلى السـيد. في هـذه اللحظـة، نزلـت النـار مـن السـماء والتهمـت الذبيحة، الغابة، والحجارة...

بعد دقائق، هطل المطر مدراراً، واضعاً حداً لأربعة أعوام من الجفاف.

بـدءاً مـن هـذه اللحظـة، نشـبت حـرب أهليـة. عمـد إيليـا إلى الأنبياء الذين لم يخونوا السيد، وبحثت جزابيل عنه في كل مكـان لتقتلـه. لكنـه لجـأ إلى الجهـة الغربيـة مـن الجبـل الخامس، الذي يشرف على إسرائيل.

وفدت جمهرة من سوريا دخلت البلد وقتلت الملك آشاب، زوج أميرة صور، بسهم دخل صدفة من ثقب في درعه. أوت جزابيل إلى قصرها، وبعد انتفاضات شعبية، بعد صعود وسقوط حكومات، تم أسرها. فضلت أن ترمي نفسها من النافذة على الاستسلام للرجال المرسلين لاعتقالها.

بقي إيليا في الجبل حتى آخر أيامه. تروي التوراة أنه في إحدى الأمسيات، بينما كان يتحدث مع أليسا، النبي الذي سماه خليفة له، "فصلت بينهما عربة وخيول نارية، وصعد إيليا إلى السماء في العاصفة"

بعد مئات السنين، يسوع يدعو بطرس، جاك و يوحنا إلى تسلق الجبل. يقص إنجيل متّى أن (يسوع) مثل أمامهم، بوجه يتألق كما الشمس وثياب صارت بيضاء كما الضوء. وظهر موسى وإيليا وتحدثا معه.

يطلب يسوع إلى الحواريين عدم الحديث عن هذه الرؤيا ما دام ابن الإنسان لم يبعث من بين الموتى، لكنهما تصدّا لهذا لأنه لن يحدث إلا عند رجوع إيليا.

متّى (١٠،٧٧-١٣) يتلو القصة:

واستفهمه التلامذة: "لمَ إذن يقول الكتبة إن إيليا وصل أولاً؟"

آنئذ أجاب يسوع: "أكيد، سيأتي إيليا ويرتب كل شيء، لكني أعلن لكم، قدوم إيليا أولاً. وعوضاً من الاعتراف به، فعلوا به ما أرادوا"

آنئذ فهم تلامذته أنه يحدثهم عن يوحنا المعمدان.

اسم الملف:	الجبل الخامس
الدليل:	C:\Documents and Settings\دار رسلان\Desktop
القالب:	C:\Documents and Settings\دار رسلان\ Application Data\Microsoft\Templates\Normal.dotm
العنوان:	بولو كولهو
الموضوع:	
الكاتب:	kenan
الكلمات الأساسية:	
تعليقات:	
تاريخ الإنشاء:	٢٠٠٩/٠٢/١٨ ٠٤:٣٠:٠٠ م
رقم التغيير:	٢٨٣
الحفظ الأخير بتاريخ:	٢٠١٢/٠٣/٢٢ ٠١:٠٨:٠٠ ص
الحفظ الأخير بقلم:	LGNB-PC
زمن التحرير الإجمالي:	٢,٦٨٣ دقائق
الطباعة الأخيرة:	٢٠١٢/٠٣/٢٣ ١١:١٣:٠٠ م
منذ آخر طباعة كاملة	
عدد الصفحات:	٢٤٩
عدد الكلمات:	٢٩,٧٩٩ (تقريباً)
عدد الأحرف:	١٦٩,٨٥٧ (تقريباً)